بابلو نيرودا
ايسلا نيجرا

الاعمال الشعرية الكاملة

ترجمة كامل يوسف حسين

اتحاد
كتاب
وادباء
الامارات



الطبعة الأولى
١٩٩٣

اتحاد كتاب وأدباء الامارات
دار الفارابي .

تبقى كل محاولة للتعليق على «إيسلا نيجرا» نقوشاً شاحبة، على جدران قلعة هائلة. . . فلندع حياة نيرودا تتحدث عن الحياة!

المترجم

حيث يولد المطر

الميلاد

أطل إنسان على الدنيا،
وسط كثيرين،
ممن اجتازوا المخاض.
خاض غمار الحياة، وسط فيض من البشر،
ممن ضربوا مثله في شعابها.
ليس ذلك وحده بالتاريخ التليد،
مثلما الأرض ذاتها،
قلب تشيلي حيث،
ترخي الكروم ضفائرها الخضراء،
وتقتات الأعناب من النور،
يولد النبيذ، من أقدام الناس.

«بارال»، هكذا يسمون الأرض،
التي أنبتته،
ذات شتاء.

الآن ما عاد لهما وجود،
لا الدار ولا الدرب.

سلسلة الجبال
أطلقت سراح جيادها .
جوّاب الآفاق ،
هبط ، من خلل المعاصر الصماء ،
إلى البراميل ،
مخضباً بدمه الرقراق .
وهناك ، في غمار الفزع ،
من تلك الأرض المروعة ،
انداح عارياً ، نابضاً بالحياة .

لست أذكر
المعالم ولا الزمان ،
لا الوجوه ولا الشخوص .
التراب الهارب وحده ،
نهاية الصيف ،
وتلك المقبرة ، التي
مضوا بي إليها ، لأرى ،
وسط القبور ،
قبر أمي الغافية .
ولما كنت قد حرمت رؤية
محياها ؛
فقد ناديتها ، وسط الأموات ؛ لعلّي ألمحها .
لكنها ، شأن كل من توسّد الأرض ،

وعافيتها الدفينة
لملمت ذاتها،
تقافزت الجبال،
وتهاوت البلدة،
وقد احتواها
رحاب زلزال.
من ثم، فإن الجدران الطينية،
والصور المعلقة على الحوائط،
والأثاث المتداعي،
في الغرف المعتمة،
والصمت المرقش بالذباب،
عادت جميعها
إلى التراب، إلى التراب.
بعضنا، فحسب، حافظوا
على تماسكنا ودمانا،
بعضنا، فحسب، والنبيذ.

مضى النبيذ. ضارباً في رحاب الوجود،
صاعداً إلى علياء الكروم،
وقد نثره
الخريف،
ودون أن تعرف أو تسمع، لم تحرِّ جواباً.
ومكثت هنالك وحيدة، دون ولدها،

وسط الأشباح.
من هناك جئت، من
بارال، ذات الأرض المرتعشة،
الأرض المثقلة بالأعناب،
التي دبّت فيها الحياة،
منبعثة من جسد أمي الراحلة.

الرحلة الأولى

لست أدري متى أقبلنا إلى كيموكو.
لفّ الغموض الميلاد، وعم التمهل
الإطلال الحقيقي على الدنيا.
وئيداً بدأ الشعور، التعرف، الكره، العشق.
كل ماله زهور وأشواك معاً.
من حضن وطني المترب،
انتزعوني، طفلاً لا أزال،
إلى رحاب مطر أوركانيا.
ضاعت ألواح خشب الدار،
بعبق الخمائل،
الغابات، بعيدة الغور.
منذ ذلك الحين، وعشقي
يداخله عُرفُ الخشب،
ويستحيل خشباً كل ما تمسه كفاي.
توحدتْ، في أعماقي،
الحيواتُ وأوراقُ الأشجار،
نساءٌ بعينهن وثمارُ البندق،

الربيع، الرجال، الأشجار.
أعشق دنيا الريح والإيقاع المخضر.
وتتداخل، عندي، الشفاه والجذور.
من الفؤوس والمطر نمتْ
بلدةُ الخشب تلك،
المنحوتة حديثاً، مثلما
نجمة جديدة، يخضبها صمغ الأشجار.
والمنشار وقمم السييّرا
تعيش الحب، نهاراً وليلاً،
رافعة عقائرها بالغناء،
وأيديها بالعمل.
وسقسة صرار الليل الحادة تلك،
فيما هو يرفع شكواه،
في رحاب عزلة لا تعرف التصدع، تستحيل، فتغدو
أغنيتي، أغنيتي أنا.
يمضي قلبي محتطباً،
مغنياً مع المناشير، في المطر،
مُقلّباً معاً البرد والنشارة وعبق الغابات.

الأم الأثيرة

تمر أمي الأثيرة،
منتعلة حذاءها الخشبي. البارحة،
هبت الريح من القطب، قرميد السقف
تحطم، الجدران
والجسور هوت.
وليوث الدجى راحت تزأر الليل كله.
والآن، في صباح،
الشمس الجليدية، ها هي ذي تقبل
أمي الأثيرة، دونا
ترينيداد مارفيردي،
رقيقة، مثلما الزخم الراحل
للشمس، في أرض تجتاحها الريح،
مصباح واهن، ينكر ذاته،
يتوهج نوراً؛
ليجلو الطريق للآخرين.

يا لأمي الأثيرة الغالية!
أبداً ما استطعت

منادتها بزوجة أبي!
في هذه اللحظة،
يرتجف فمي؛ ليعرّف بك،
ذلك أني لم أكد
أشرع في الفهم،
حتى رأيت الطيبة، في ثياب قاتمة، ومتواضعة،
قداسة عملية ـ
طيبة الماء والطحين،
هذا ما كنته أنت. حوّلتك الحياة خبزاً،
وهناك اقتاتت أعمارنا منك،
من شتاء طويل إلى آخر مفعم بؤساً.
وقطرات المطر تتسرب
داخل الدار.
وأنت،
حاضرة، أبداً، في تواضعك،
ناخلة
بذور الفقر،
المريرة،
كأنما كنت تعكفين
على توزيع نهر من الماسات.
آه، أماه، كيف يسعني
ألاّ أواصل تذكرك

في كل لحظة أحياها؟
مستحيل. ها إني أحمل
لقبك «مارفيردي» في دمي،
لقباً

من الخبز الذي اقتسمناه،
من هاتين اليدين الرقيقتين،
اللتين حاكتا، من جوال طحين،
ملابس طفولتي،
يديّ من طهت، غسلت الثياب، كوتها،
غرست، هدّأتُ سعار الحمى.
وحين اجترحت كل شيء،
وغدا بمقدوري، أخيراً،
الوقوف على قدميّ الواثقتين،
رحلت، وقد أتمت رسالتها، ملتفة بالعتمة،
بعيداً في تابوتها الصغير،
حيث هجت ـ لمرة ـ في هدوء،
تحت مطر «تيموكو» المنهمر.

الأب

يعود أبي الكال،
من رحاب القطارات.
نتعرف،
في الليل،
صفير
القاطرة.
يثقب المطرُ،
بأنّة تجوب الآفاق،
نحيبَ الليل.
إثرها،
يرتجف الباب منفتحاً.
هبة ريح
تلج الدار مع أبي.
وبين وقع الأقدام وهبات الريح،
تهتز
الدار،
والأبواب الذاهلة
ترتطم بجراب

الغدارتين الخشن .
يئن الدرج ،
وصوت عال
يزمجر شاكياً ،
فيما الظلام الوحشي ،
والمطر المنصب شلالاً ،
يدمدمان ، فوق الأسقف .
وشيئاً فشيئاً ،
يغرقان الدنيا ،
فما تترامى إلى السمع إلاّ الريح ،
تخوض غمار القتال مع المطر .
غير أنه كان حدثاً يومياً .
قائد قطاره ، قطار الفجر البارد ،
وما إن تشرع الشمس
في الإطلال ،
حتى ينتصب بلحيته ،
براياته الحمر والخضر ،
بمصابيحه على أهبة الاستعداد .
وفحم المحرك في جحيمه الصغير ،
والمحطة ذات القطارات الملتفة بالغمام ،
وواجبه في عبور الآماد .
بحّار على الأرض هو رجل السكك الحديدية .

وفي المرافىء، التي لا يحدها شاطىء ـ
في بلدان الغابة، يعدو القطار، يعدو،
مطلقاً العنان للطبيعة،
متماً إبحاره، حول الأرض.
وحين يُقْبِلُ القطار الممتد؛ ليستكين للراحة،
يلتقي الأصدقاء،
يُقْبِلونَ، فتنفتح أبواب طفولتي،
تهتز المائدة،
تحت لطمات رجل السكك الحديدية،
تتقافز أكواب الرفاق الغليظة،
ويلتمع
البريق،
من عيون النبيذ.

يا لأبي المسكين، الفظ!
هنالك في محور الوجود كان،
وفيًّا في الصداقة، مترع الكأس.
كانت حياته حملة من الانطلاق،
وبين يقظاته الباكرة ورحيله،
بين وصوله واندفاعه،
ذات يوم أغزر مطراً من الأيام الأخرى،
ركب رجل السكك الحديدية، جوزيه ديل كارمن ريّيز،
قطار الموت، وحتى الآن لم يعد.

البحر الأول

اكتشفت البحر. من «كاراهو»،
تدفق نهر كوتان إلى مصبه.
وفي القوارب،
شرعت أحلام، وحياة أخرى، تتملك ناصيتي،
مخلفة أسئلة، بين أهدابي.
طفلاً هزيلاً، عصفوراً،
تلميذاً منطوياً، أو سمكة غارقة في الظلال،
وقفت وحيداً، في مقدمة المركب،
نائياً،
عن الفرحة، فيما
دنيا
المركب الصغير،
غافلة عني،
تنثر خيط
آلات الأوكورديون.
الزوار العابرون،
في الصيف والماء،

عكفوا على الطعام والغناء.
وحيداً في المقدمة، وقفت ضئيلاً،
وبالكاد إنساناً،
ضائعاً،
ولا ذهن له، ولا صوت،
ولا فرح،
جمّدته حركة المياه
المتدفقة، وسط الجبال الراحلة في البعيد ـ
لي وحدي كانت هذه الأماكن المنعزلة،
ملكي وحدي كان درب العناصر ذاك،
ملك يميني وحدي كان الكون.

نشوة الأنهار،
الضفاف المتوجة بالأجمات والعبق،
الصخور الفجائية، الأشجار المحترقة،
والأرض مترامية الأطراف، الملتفة بالوحدة.
طفلاً لهذه الأنهار
واصلت
الرحيل، في الأرض،
على امتداد حواف النهر ذاتها،
نحو زبد البحر ذاته.
وحينما ارتطم بحر ذلك العهد،
في غمار غضبه،

انطلقت متحرراً من جذوري .
كبرت بلادي .
انفلق عالمي الخشبي منفتحاً ،
وسجن الغابات
فتح باباً أخضر ،
ولجت منه الموجة ، بكل رعدها .
ومع صدمة البحر ،
اتسع رحاب حياتي ، منداحاً نحو الفضاء .

الجنوب

التخوم الشاسعة. من
«البَيو ـ بَيو»،
وحتى «ريلونكافي»،
مروراً
ب«رينيكو» و«سيلڤا أوسكورا»،
بل ما وراء ذلك،
تضع طيور الحجل بيضها.
وطحالب الأدغال الكثيفة،
تخلف وراءها مطراً، يحاكي أوراق الأشجار.
والعناكب،
الشفافة،
لا تعدو أن تكون منمنمة من الأعصاب،
تلفها أنسجة غائمة.
ثعبان،
كالرجفة،
يعبر المستنقع المظلم،
يتألق،

ويختفي .
اكتشافات
الغابة ،
والشعور بأن المرء ضلّ طريقه ،
تحت
قوس الأشجار وصرة الأغصان
الشفق الغابي (ضائعاً ،
وبالغ الضآلة) يعج بالقوارض ،
بالثمار ، وبالريش .
أضرب ، ضالاً ،
في أكثر
مسارب الخضرة ظلاماً .
صرخة تندّ عن طيور فاترة .
شجرة يتهاوى
منها شيء يحلق ، ويتساقط ،
على رأسي .
وحيداً ،
في دغل ميلادي ،
في أروكانيا السوداء ،
العميقة .
ثمة أجنحة
تدّف ، في الصمت ،
قطرة ماء

تتهاوى،
ثقيلة وباردة،
كأنها حدوة حصان.
تضج الغابة، وتلزم الصمت،
يلفها الصمت، حين أصغي،
وتضج حين أغفو.
أدفن
قدمي المتعبتين،
في تحلل
الزهور العتيقة، واغلال
العصافير، الأوراق، الثمار،
ذاهب البصر، مسكوناً باليآس،
إلى أن تلوح بقعة نور. . .
دار.
تدب فيّ الحياة، من جديد
ولكن من بقعة النور تلك، وحدها،
من خطواتي الضالة،
من عزلتي الذاهلة، من الخوف،
من المعترشات المتشابكة،
من الخضرة المنهمرة، ودونما مهرب،
عدت حاملاً السر.

عندئذ، وهناك فحسب، استطعت إدراكه،

عند حافة هاوية الحمى .
هنالك في الضوء الكابي ،
تقرر ، وأبرم
عقدي مع الأرض .

مدرسة الشتاء

الشتاء والمدرسة توأمان، كشطري الأرض،
تفاحة واحدة، باردة، وهائلة.
لكني اكتشفت، تحت فصول الدراسة،
عوالم سفلى، تسكنها الأشباح.
وفي العالم السري،
رحنا نضرب،
في رهبة.

إنها الظلمة الدفينة،
صراع لا طائل وراءه،
بسيوف خشبية،
عصابات الشفق،
المسلحة بجوز البلوط،
الطلاب المقنعين
للمدرسة السفلية

ثم النهر، الغابات، ثمار الخوخ،
الخضر، «وساندوخان»، «ساندوخانا»،

والمغامرة بعينّي فهد،
وصيف بلون الحنطة،
وبدر يطل على ياسمينة،
وكل شيء دائب التحول.
يهوي شيء من السماء،
نجمة هاوية
أم الأرض ترتجف
في إهابك.
يمتزج شيء مخيف بلحمك،
ويشرع العشق في التهامك.

الجنـس

الباب عند الغسق،
تلفه حُمَيَّا الصيف.
وعربات الهنود الأخيرة
ذات الجياد،
سنا يرتعش.
ودخان حرائق الغابات
يتناهى، وانياً من الدروب،
حاملاً رائحة الجمر،
الأحمر،
يُمجها الحريق النائي.

وأطلُّ، في زي الحداد،
جهماً،
منكفئاً على ذاتي.
سراويل قصيرة،
سيقان نحيلة،
وركبتان،
عينان تبحثان

عن كنوز فجائية .
روزيتا وجوزيفينا ،
على الجانب الآخر
من الطريق ،
تبرق منهما الأعين والأسنان ،
يسكنهما الوهج والتصخاب ،
شأن قيثارات صغيرة ، خفية ،
تدعوانني .
وأعبر
الطريق ، مضطرباً ،
مذعوراً .
وما أكاد
أصل ،
حتى تلفني همساتهما ،
تمسكان بيديّ ،
تحجبان ناظريّ ،
وتنطلقان معي عدواً ،
وبراءتي ،
إلى المخبز .

صمت المناضد الهائلة ، مأوى
الخبز الجهم خال من الناس ،
وهناك كلتاهما

معي أنا السجين
في أيديهما،
روزيتا الأولى،
وجوزيفينا الأخيرة.
أرادتا أن تخلعا عني ثيابي،
هربت، مرتعشاً،
لكني ما استطعت
العدو؛ فساقاي
ما كان بمقدورهما
حملي وعندئذ
اجترحت
الـ
ساحرتان،
أمام ناظري،
معجزة:
الوكر الضئيل
لعصفور بريّ صغير،
ذي بويضات خمس،
ذي أعناب خمس بيضاء،
عنقود،
صغير،
من حياة الغابة.
ومددتُ

يديّ،
فيما
كانتا تبحثان في ثيابي، مرتبكتين،
راحتا تتلمساني،
تفحصان، بأعين مذهولة،
رجلهما الصغير الأول.

وقع أقدام ثقيلة، سعال،
يصل أبي
مصطحباً غرباء،
فنعدو،
نغوص، في رحاب العتمة،
تنكفىء
القرصانتان،
وأنا أسيرهما،
وسط نسيج العنكبوت.
نلملم أطرافنا،
تحت المنضدة الهائلة، مرتعدين،
فيما المعجزة،
الوكر،
ببويضاته شاحبة الزرقة،
يتراخى، وأقدام الطارقين، على حين غرة،
تسحق قوامه وعبيره.

ولكن مع الفتاتين،

في الظلمة،

والخوف،

وعرف الطحين،

والخطى الشبحية،

والأصيل يرحل، رويداً، في رحاب العتمة،

أحسست أن شيئاً ما راح

يتحول،

في دماي،

وأنه إلى فمي،

إلى كفيّ،

مضت تتصاعد

زهرة

كهربائية،

الزهرة،

اللهفى،

المتألقة،

للرغبة.

الشعــر

وفي ذلك العهد. . . أقبل الشعر،
ساعياً ورائي. لست أدري. لست أدري من أين
جاء، من رحاب شتاء، أو من أعماق نهر.
لست أدري كيف أو متى،
لا، لم تكن أصواتاً، لم تكن
ألفاظاً ولا صمتاً،
لكن الشعر من شارع ناداني،
من أغصان الليل،
ومفارقاً الآخرين فجأة،
وسط ألسنة لهيب تتأجج،
أو عائداً وحيداً،
كان يلوح لي، بلا وجه،
يتلمسني.
لم أدر ما أقول، فما لفمي
سبيل
إلى الأسماء.
فقدت عيناي البصر

شيء ما اجتاح روحي،
حمى أو أجنحة منسية،
سرت في دربي،
أكتنه مغاليق
تلك النار.
نظمت البيت الواهن الأول،
واهناً، دونما مضمون، هراء
محضاً،
حكمة خالصة،
نطق بها جاهل.
فجأة، أبصرت
السماء
تنساب
مفتوحة الأبواب،
والكواكب
والنباتات ترتجف،
والظلمة ترقّشها الثقوب،
مثقلة
بالسهام، بالنار، والزهور،
الليل الطاغي، والكون.
وأنا الكائن الضئيل،
ثمل بالفضاء، الهائل، المرقّش

بالنجوم،
التماثل، صورة
الأحجية
أحسست بنفسي جزءاً محضاً
من الهاوية.
درت مع النجوم.
وانطلق فؤادي من عقاله، مع الريح.

الخجـل

لم أكد أدر، بنفسي، بأني موجود،
وأن سيكون بمقدوري الوجود، مواصلة الوجود.
لفني الخوف من هذا، من الحياة ذاتها.
لم أرد أن يراني أحد،
وما رغبت أن يعلم أحد بوجودي.
غدوت شاحباً، ناحلاً، شارد الذهن.
لم أرد الحديث، حتى لا يتعرف
أحد صوتي، لم أرغب
في أن أرى؛ كيلا يراني أحد.
وفي سيري التزمت الجدار،
مثلما ظل ينساب نحو البعيد.

وددت لو التففت
في قرميد الأسقف الأحمر، في الدخان،
أن أمكث هنالك، خفياً،
أن أشهد كل شيء، ولكن من بعيد،
أن تبقى هويتي غامضة،
ملتصقة بإيقاع الربيع.

وجه فتاة، المفاجأة الخالصة
لضحكة تشطر النهار،
مثلما شطري برتقالة،
وأنتقلت إلى شارع آخر،
لم تثبطني الحياة، متردداً،
دانياً من المياه، دون تذوق برودتها،
قريباً من النار، دون تقبيل لهبها،
وقناع من الكبرياء يغللني،
كنت ناحلاً، متصلباً، مثلما الرمح،
لا أصغي لأحد، لا يسمعني أحد،
(فقد جعلت ذلك مستحيلاً)،
ويرحل في البعيد غائراً،
نحيبي،
مثلما عواء كلب، ناله الأذى،
في أعماق بئر.

«الباتشيكو»

لم ينقض ذلك العام،
مجهولاً، دون أن تحصى أيامه،
ودربه المهجور
لم ينثر
ثمار البرقوق أو الأسابيع.
ظل كل شيء كامناً،
وراء جبيني.
أغمض عينيّ، فيحترق شيء ما.
الغابات، السهوب تتراقص، في الدخان.
وأدلف، جم التردد،
عبر هاتيك الأبواب،
التي لا وجود لها الآن، تلك الأبراج الفانية.

في ذلك العهد، وذات نهار صيفي،
ساعين خلف الشمس النهرية، من كاراهو،
بلغنا مصب النهر،
عند «بورتوآمو»،
الذي يدعى

«بورتو
سافيدرا»، قرية
هزيلة الدور،
لطمتها
قبضة الشتاء.
أرصفة هتماء، قصدير وخشب،
حوانيت،
تحفل بالفاجالد والماريتا،
دور تحفها الكروم والبارودى،
وتلك الدار من بينها،
التي
ولجناها،
الأم الأثيرة، الأخت، الأطفال والحشايا.
آه، يا للمداخل تخفي
عبير
أشجار صريمة الجدي، في الدار الصيفية والزهرة المتسلقة
للعسل والعزلة، الدار الصيفية الخاوية،
التي أفعمتها من الغمام إلى الغمام باليمامات،
بأشد ضروب الانقباض غرقاً في العزلة.
يا لدار «الباتشيكو»!
آه، يا للذكرى!
المزهرة،

وللمرة الأولى
تحفل الباحة بأزهار الخشخاش!
ترحل الزهور البيض عن
البياض ذاته،
أو ترفع عالياً
أيادي
الشتاء.
والزهور الحمراء
تبرز
دماً فجائياً،
وأفواهاً ممزقة.
الزهور السوداء
تتسلق
حياتها الحريرية،
وتندلع،
في إهاب ليلي، في نهود
إفريقية.

في الليل يطالع «الباتشيكو»
كتب «الفانتوما» بصوت عال،
مصغين،
متحلقين النار، في المطبخ،
وأمضي إلى المرقد، سامعاً

المؤمرات،
شريعة الخنجر، المعاناة،
فيما للمرة الأولى
رعد المحيط الهادي
يواصل دفع براميله،
عبر أحلامي.
عندئذ،
يبدأ البحر والصوت في الانداياح،
وسط أزهار الخشخاش،
وينطلق قلبي الصغير، على متن
سفينة الأحلام الهائلة.

بحـيرة البجـع

بحيرة «بودي»، في الظل، عتمة وحجر ثقيل،
مياه تمتد بين الغابات الشاسعة، التي لم تعرف الغرق،
هنالك تفتح ذاتك، مثلما تفتح باباً تحت الأرض،
إلى جوار ذلك البحر الموحش، عند نهاية الدنيا.
مضينا نعدو، على امتداد الرمل اللامتناهي،
قريبين من الزبد الوافر المنداح،
لا الدار ماثلة، ولا الإنسان، ولا الجواد،
الزمان وحده يمضي، وذلك الشاطىء الأخضر،
الأشهب، ذلك المحيط.
ثم نمضي إلى التلال. وفجأة،
تعانق البحيرة، وقد تصلبت أمواجها، واحتجبت،
النور الألاق، مثلما جوهرة ترصع خاتماً من طين.
تحلق طيور البجع، اندياحاً أشهب، يخالطه السواد،
أعناق طويلة من الليل، أرجل من الجلد الأحمر،
وثلج رائق، يرف فوق الدنيا.
آه، يا للتحليق من الماء المؤتلق!
ألف بدن تتجه نحو السكون البديع،

مثلما دوام البحيرة الشفاف .
فجأة، يتسابق كل شيء فوق الماء،
الحراك، الضجيج، أبراج من البدر،
ثم أجنحة برية، من قلب الدوامة،
تستحيل نظاماً، تحليقاً، تراميا تحقق،
ثم يرين غياب، ورعشة شهباء، في الفضاء .

الطفـل الضـال

طفولة وئيدة من رحابها،
مثلما من النجيل المسترسل،
تنمو المدقات الزهرية، ممتدة العمر،
يتفرع جذع رجل.

من تراني كنت؟ ماذا عساي كنت؟ ما الذي كناه؟

ليس ثمة رد، فصدفة جئنا.
ما عرفنا الحضور، واصلنا السير في درب الوجود،
أقداماً أخرى، أياد أخرى، عيوناً أخرى.
واصل كل شيء التحول، وريقة، وأختها
على غصن الشجرة، وماذا عنك؟ تبدّل جلدك،
شعرك، ذاكرتك. لم تكن ذلك الآخر.

ذلك الآخر كان طفلاً، مرّ عَدْواً،
وراء نهار، خلف دراجة.
وفي غمار الحراك،
انقضت حياتك مع تلك اللحظة.
هوية زائفة خلّفت على الأرض آثار خطاك.

يوماً، إثر يوم، تجمعت الساعات،
لكنك لست هناك الآن، فقد أقبل الآخر،
الأنت الآخر، الآخر حتى غدوت،
حتى
جلبت من القطار، من عربات حياتك،
من الاستبدال، من ذاتك الراحلة،
ذاتاً جديدة، إلى رحاب الوجود.
شرع قناع الطفل يتبدل،
وألمه ينحسر،
كفت ذاته عن التحول.
تماسك الهيكل،
وتصلبت العظام،
والبسمة،
الخطوة، الإيماءة الغريبة، صدى الصوت
لذلك الطفل العاري،
الذي بدأ من توهج برق،
لكن النمو كان يحاكي حلة جديدة،
استعارها الآخر، الرجل، وارتداها،

ذلك هو ما وقع لي.
من رحاب الغابات،
جئت إلى المدينة، الغاز، والوجوه القاسية
تلملم وجودي وكياني.

أقبلت، وسط نسوة ينشدن ذواتهن فيّ،
كما لو كنت قد أضعتها.
هكذا، واصل الضرب في الدنيا
ذلك الرجل الذي طاله الدنس،
وليد الطفل النقي،
إلى أن فارق كل شيء ما كان عليه.
وفجأة، تخايل في وجهي
مُحيا غريب،
كان بدوره إياي.
كان «أنا» ينمو
كان «أنت» متطاولاً،
كان كل شيء،
لكننا نتغير.
ما عدنا نعرف من كنا.
وفي بعض الأحيان، نتذكر
ذلك الذي عاش في إهابنا،
فنسائله؛ لعله يتذكرنا،
لعله يعرف أننا كنا، وأننا نتحدث
بصوته،
لكنه عبر السنين المتهالكة،
يطل علينا، ولا يتعرفنا.

الوضع الإنساني

ورائي، مترامياً نحو الجنوب، شظّى
البحر الأرض، بمطرقته البلّورية.
ومن العزلة الجريحة، إنقلب
الصمت، فجأة، أرخبيلاً،
وجزراً خضراء، طوقّت
خصر بلادي،
مثل لقاح، أو تويجات من وردة بحرية،
وترامت الغابات، وقد أنارتها الحباحب،
بلا انتهاء، وشعّ الوحل بالضياء.
وأرخت الأشجار حبالاً جافة، طويلة،
كأنما في سيرك، وانهلّ النور من قطرة إلى أخرى،
كراقص أخضر، يميل بقده، وسط العشب.

أفعمتني بالوهج أعراق صامتة،
فؤوس تقطع بكبرياء الحطاب،
روائح الأرض المكنونة.
الضروع والنبيذ.

كانت روحي حانة تائهة، وسط القطارات،
اكتظت بالنائمين الضائعين، دنان الخمر،
سيقان النباتات، الشوفان، القمح، الكوشايو، الألواح الخشبية،
والشتاء بعروض تجارته الكئيبة.
هكذا، واصل جسدي النمو ليلاً،
استحال ذارعاي ثلجاً،
وقدماي أعاصير.
كبرت، مثلما نهر في مصب،
كنت خصباً في كل شيء
وقع لي، التبرعم،
الأغنيات المسافرة، من وريقة لأخرى، الخنفسات السود،
التي توغل في التناسل، الجذور
الجديدة، التي تعلو إلى
السطح،
العواصف التي لا تزال تهز
أبراج الغار، الغصن زاهي الحمرة،
لشجرة الجوز، الصبر
المقدس للأرزية.
هكذا، كانت مراهقتي
مشاهد من الطبيعة، كانت لي
الجزر، الصمت، الجبال، الضياء
البركاني المتصاعد، وحل الطرقات،
والدخان الوحشي لكتل الأخشاب المحترقة.

الظلـم

من يكتشف أنا من أكون يكشف النقاب عمن تكون،
ولماذا وأين.
مبكراً، اكتفشت مدى الظلم.
لم يكن الجوع سغباً فحسب،
وإنما معياراً للإنسان.
وكان البرد والريح معايير كذلك.
مائة جوع احتملها ذو الكبرياء، وهوى.
وفي موجة الجليد المائة، دفن بيدرو.
احتملتْ الدارُ البائسة ريحاً واحدة.
وتعلمتُ أن السنتيمتر والجرام،
الملعقة واللسان، هي مقاييس للشره،
وأن الإنسان، إن طاردته ضروب الضيق، سرعان ما يسقط،
في ثقب، فما يعود يعرف المزيد.
لا مزيد. ذلك كان المنطلق،
الهبة الحقيقية، المكافأة، النور، الحياة.
ذلك كان الأخر، معاناة البرد والجوع،
الافتقار إلى حذاء، الشعور بالخوف،

أمام القاضي، أمام الآخر،
الكائن الآخر بسيفه ومحبرته،
وكذلك الحفر، القطع،
الحياكة، صنع الخبز، زرع القمح،
طرق كل مسمار يحتاجه الخشب،
التنقيب في الأرض، وكأنما في الأمعاء،
لاستخراج الفحم المتصدع في عماء،
والمضي صعداً مع الأنهار والجبال،
امتطاء صهوات الجياد، إصلاح السفن،
صنع القرميد، نفخ الزجاج، غسل الملابس،
على نحو يجعل ذلك يبدو
مملكة، أطلت على الوجود حديثاً،
كروماً تأتلق في عناقيدها،
حين يعقد الإنسان عزمه على الرضا
ثم لا يرضى، فلا يعود كذلك. كنت اكتشف
شرائع البؤس،
عرش الذهب المدّمى،
الحرية العاهر،
الأرض العارية،
الفؤاد الجريح، المتهالك،
وصوت الموتى، العاري من الدمع،
الجاف، مثلما حجارة تهوي،
ثم رحلت عن رحاب الطفولة؛

لأني أدركت، عندئذ، أنه بالنسبة لأهلي،
جُعلت الحياة شيئاً محظوراً،
وحيل بينهم وبين القبر.

الضائعون

لا البحر وحده، لا الساحل فحسب، الزبد،
الطيور في حضورها المنيع،
لا تلك وحدها، وغيرها من العيون الترعة بالدهشة،
لا الليل الراحل في الحزن وحده بكواكبه،
لا الغابة فقط، بما تعجّ به من كائنات،
وإنما الألم، الألم، هو خبز الإنسان.
ولكن لم؟ في ذلك العهد كنت
ناحلاً، مثلما نصل، وأكثر دكنة
من سمكة، في ماء ليلي، وقد ضقت
ذرعاً، أردت أن أُغيّر الكوكب بضربة واحدة.
بدت لي مثلما الاقتيات بعشب مرير
المشاركة في صمت تلطخه الجرائم.
لكنما في العزلة تولد الأشياء، وتموت،
ينمو العقل، يتصاعد، حتى يغدو جنوناً،
تنمو التويجيات، دون أن تصبح وردة.
ما العزلة إلاّ غبار الدنيا، الذي لا طائل وراءه،
الساقية التي تدور، دونا أرض، أو ماء، أو إنسان.

هكذا صرخت في غمار ضياعي،
وإلامَ آلت تلك الصرخة في فم طفولتي؟
من الذي أصاخ السمع لها؟ أي صوت جاوبها؟
أي طريق سلكتُ؟
بم ردت الجدران
حين لطمت رأسي بها؟
يمضي، ويُقبل صوت الوحيد الواهن،
تلف، تدور، ساقية المتوحد الرهيبة.
تتصاعد، تنحدر تلك الصرخة، وما عرفها أحد،
لم يعرفها حتى الضائعين.

أساطير

يعود العم «جينارو»،
من الجبال. ليس للرجل
عظمة ما نالها النقصان في بدنه.
حطمت كل شيء الأرض،
الجياد، الطلقات، الثيران،
الأحجار، الجليد، حظه.
كان يأوي في بعض الأحيان إلى حجرتي.
يتحامل على ساقيه المتصلبتين؛
ليرقى الفراش،
كأنما يعتلي صهوة جواد.
يزمجر، يكيل اللعنات، يجرّ
نعليه المبتلين، باصقاً فيما هو عاكف على هذا،
وفي النهاية، مدخناً،
يشرع في الحديث عن أحداث الأدغال.
هكذا، عرفت أن الشيطان،
نافثاً أبخرة الكبريت،
تجلى لجوان نافارو،

سائلاً عود ثقاب، ولحسن الطالع،
وقبل أن يلتزم بالرد،
لمح «جوان نافارو» الذيل،
ذيل الشيطان الكهربائي، كثّ الشعر،
على الأرض، تحت معطفه،
وقابضاً على سوطه جلد
الخواء؛ لأن الشيطان
انحل هارباً، انقلب فرع شجرة،
أثيراً، أو ريحاً ليلية باردة.
واسع الحيلة هو ذلك الشيطان العجوز!

يدخن «جنيارو كانديا»، يواصل التدخين،
فيما أمطار يوليو الكبرى
تنهمر، وتواصل الانهمار على «تيموكو»،
وعلى هذا النحو فإن شعب المطر
بثّ الحياة في دياناته.

صوت انهمار المطر ذاك، وئيداً،
يتردد صوت الانقطاعات، الانكسارات،
صوت شجرة البولدو، الهواء البارد،
هبات الريح، الشوك،
ذلك الصوت الذي لملم مجدداً
آثاراً قوائم الأسد الجريح،
دروب الكندور المعتمة،

زخم الربيع،
حين لا تهلّ الزهور، دون أن تصحبها البراكين،
قلوب بلا سروج،
حيوانات ضارية تتردّى
في الهاوية، تنقدح الشرارة،
من لطمة حدوة جواد،
وفيما بعد، الموت وحده،
الغابة المتطاولة، بلا انتهاء.
تندر كلمات «دون جينارو»،
ومقطعاً فآخر يستحضر
قطرات العرق، الدماء، الأشباح، الجراح.
يوغل العم «جينارو» في التدخين،
فتمتلىء الغرفة
بالكلاب، وريقات الشجر، الأسفار.
وأسمع، مصيخاً، كيف أنه في البحيرات الرقراقة،
تلمح جلداً طافياً، بريئاً،
وحين تمدّ راحتك لتلمسه،
ينقلب وحشاً، رهيباً،
فيدفعك إلى حضن كارثة،
إلى ضروب اختفاء،
هناك في أرض الموتى،
في أعماق لا يسبر غورها أحد،
حيث يقبع من أطاحت الغابات برؤوسهم،

من امتصت الخفافيش دماهم،
ومدت أجنحتها الحريرية الهائلة،

كان كل شيء زلقاً،
كل درب، وكل حيوان
يخرج من وكره، يغامر بعمره، وحريق
يندلع عبر السهوب،
جوّاب آفاق تحت البدر،
وثعلب أملس الفراء يعرج،
وريقة شجرة قاتمة تهوي.
ما إن مددت كفك لتمس
الصليب، التذكار؛
لترشم الصليب على جبينك، حتى انهلّ البريق،
القرن المحترق، رائحة الكبريت.
ولكن ليس في الهواء الطلق وحده،
يتجلى الشيطان، المخاتل، الملتف بالظلمة.
في أغوار الدور
أنين، نحيب، مترامي الظلال،
وقرقعة أغلال،
والميتة التي لا تغيب قط،
عن مواعيدها الليلية،

و«دون فرانشيسكو مونتيرو»،
الذي يعود مطالباً بجواده،

هنالك، في سفليين، إلى جوار الطاحون،
حيث أدركه الفناء، مع زوجته.

تمطى الليل بصلبه، ويردف المطر أعجازاً.
أتبين الوهج، الذي لا ينتهي،
للسيجارة، يمضي غارقاً في التدخين،
«جينارو كانديا»، يواصل الحديث،
يساورني الخوف، ينهمر المطر،
وبين الماء والشيطان أسقط،
في وهدة من كبريت،
في جحيم يعجّ بجياده،
وبجباله الهاربة.

مصغياً للمطر، مرات عديدة،
غفوت في الجنوب،
بينما عمي «جينارو»
يفتح ذلك الجوال القاتم،
الذي جلبه من الجبال.

الكتــب

كتب مقدسة، وبالية، كتب
تُلتَهم، وتلتِهم،
سرية،
مخبؤة في الجيوب:
كان نيتشه، ضائعاً بعبق السفرجل،
وجوركي رفيقيّ،
السريين، الخفيين.

آه، يالتلك اللحظة الضارية،
على الصخور، في عالم فيكتور هيجو،
حين يبني الراعي بمعشوقته،
بعد القضاء على الأخطبوط،
و«أحدب نوتردام»
يواصل المسير، عبر عروق
البناء قوطي الطراز،
و«ماريا» جورج اسحق

حضن أشهب في زمن وهج
المزارع السماوية

تصيب المرء بالشلل،
في غمار طلاوة أكاذيبها.

قطـار الليـل

قطار الليل الطويل
يمضي، غالباً،
من الجنوب إلى الشمال،
بمعاطف مبللة،
حبوب،
وأحذية لطّخها الطين،
في الدرجة الثالثة،
تصادفك نتؤات يعمها الاسترخاء،
ربما بدأت، في ذلك الوقت،
يومياتي عن الأرض.
تعلمت كيلو مترات
الدخان
المترامية، في امتداد الصمت.

اجتزنا «لوتارو»،
أشجار السنديان، الأرض

في ضوء مدلهم، ومياه
هادرة.

امتدت القضبان الطويلة، راحلة في البعيد.
وفيما وراء ذلك جياد وطني
واصلت عبور
فضاء
البراري.
وفجأة،
يمتد جسر «ماليكو» السامق،
رقيقاً،
مثلما كمان،
من حديد خالص،
ثم يترامى الليل
راحلاً، راحلاً،
يواصل قطار الليل عبور الكروم.

ثمة أسماء أخرى،
بعد «سان روزيندو»،
حيث كل القطارات
تتجمع؛ لتنال قسطها من الرقاد
تلك المقبلة من الشرق إلى الغرب،
وهاتيك الآتية من «البَيو ـ بَيو»،
وتلك المطلة من قصّي الأرجاء،

من ميناء «تالكانو» مهلل البناء،
وتلك التي جلبت مقنّعة بالخبار الأزرق،
القيثارات وخمر «رانكاجو» المقطرة في الدور.
هناك رقدت القطارات،
غافية،
في مزيج الرماد والحديد،
بعقدة مواصلات «سان روزيندو»،

أجل أيها الطالب الصغير!
واصلتَ تبديل
القطارات والكواكب.
صادفتَ
مدناً شاحبة، من الطوب اللبن،
والغبار الأصفر، والكروم.
وفي الموضع، الذي بلغه القطار، بدت الوجوه
مكان وحوش القنطور،
وتراصت صفوف العربات، لا الجياد،
في أول تجل للاحتراق الداخلي،
كان العالم يغدو أكثر يسراً.
وحينما،
تطلعت عائداً بناظرّي،
كان المطر يهمي،
وطفولتي تحتجب عن الأنظار.

إندفع القطار، راعداً، نحو
العاصمة «سنتياجودي تشيلي»،
في ذلك الوقت، فقدت أشجاري.
وجوه شاحبة.
أنزلت حقائبي، ورأيت للمرة الأولى
أيدي الكلبيين.
انضممت إلى جمع من الكاسبين والخاسرين.
رقدت في فراش لم يُعَدّ لي.
ومن فرط الإعياء؛ رقدت كلوح من الخشب،
وحينما استيقظتُ،
شعرتُ بعذاب سقوط المطر.
شيء ما كان يفصلني عن دمي.
خرجت، مصدوماً، إلى
الطريق،
فأدركتُ (لأني كنت أنزف دماً)
أن جذوري قد اجتثت.

الدار ذات الغرف المؤجرة في «كالي ماروري»

«ماروري» شارع،
الدور لا تطل، ولا تحاكي إحداها الأخرى.
ورغم ذلك، فهي متضامة،
جداراً لصق جدار، ولكن
نوافذها
لا ترى الطريق، لا تتحدث.
فهي الصمت، وقد تجسد.

تطير ورقة، مثلما وريقة شجر قاتمة،
تهاوت من شجرة الشتاء.

يضرم الأصيل النار في المغيب، فتضطرب
السماء، وتنشر لهيباً هارباً.

يغزو ضباب أسود الشرفات.

أفتح كتابي. أكتب،
وكأني
في مهوى
منجم، في سَرَب

رطب، مهجور.
أعرف ألاّ أحد الآن،
في الدار، في الطريق، في المدينة المريرة.
سجين أنا، وراء باب مفتوح،
والعالم يفتح ذراعيه.
طالب حزين أنا، ضائع في الشفق،
أرقى الدرج؛ لأنال نصيبي من حساء الرأس،
وأهبط إلى فراشي ورحاب اليوم التالي.

القمر في المتاهة

أقاصيص حب: تريزا(١)

أين مني وما صنع الدهر
بذلك الذي
كان حباً ذات يوم؟
الآن، هو ذا
قبر عصفور، قطرة
من بلّور أسود،
شظيّة
من خشب مَضَغَهُ المطر.

وذلك البدن الذي تألق،
مثلما البدر في رحاب
ذاك الربيع الجنوبي؟
ما الذي بقي منه؟
هاتان اليدان،
اللتان أمسكتا،
بملء الصفاء، غمغمة
النهر الرقراق،
العينان النجلاوان في الخشب

تحجرتا،
مثلما بلّورات معدنية، في الليل،
هاتان القدمان
لفتاة أحلامي،
ساقا زهرة، ساقا سنبلة، ساقا ثمار الكرز،
متأهبتان، سريعتان، محلقتان،
بين صباي الخجول والدنيا؟
أين حبي الراحل؟
الحب، الحب،
إلى أين يرحل ليلقى حتفه؟
أتراه يمضي إلى مخازن حبوب سرية،
تحت شجيرات الورد التي ذوت،
تعلوها سبعة أقدام من الرماد،
انهالت من هاتيك الدور البائسة،
التي أتى عليها حريق شب في قرية؟
آه، يا لحُب
ذلك النور الفجري الأول،
الضحى الوحشي،
برماحه الممتدة،
حب يعانق السماء كلها،
قطرة، فقطرة،
حينما تمر مراكب الليل الهائلة،

عبر الدنيا .
آه، يا لذلك الحب
في وحشة
الصبا
آه، يا لتلك الاقحوانة!
المنداحة
بالعطر والندى،
ندية، كالنجوم،
عبر الوجه،
تلك القبلات
تزحف فوق
الجلد،
ضافرة، عاضة،
من أجساد صافية متفتحة إلى
الزرقة الصلدة لليل المبحر .

تريزا، بعينيك النجلاوين .
تحت البدر،
أو شمس الشتاء، حينما
الآماد
تلملم نصيبها من الألم، والشعور بالخذلان،
النابع من النسيان العميق،
وتتألقين يا تريزا،

مثلما بلور التوباز
المحترق،
مثلما حريق
البعث،
كالمعدن يتألق تحت البرق،
فتبتلعه شفتا الليل.

تريزا
كلها التفتح، وسط زهور الخشخاش،
تألق،
أسمر
من ألم أصلي،
نجمة وسط الأسماك،
في نور
كهرباء تناسلية محض،
عصفور أرجواني من الهوة الأولى
بلا فراغ، في مملكة
القلب المكشوف،
الذي اقتاتت أشجار اللوز من عسله
اللقاح الناري
للمقشة الوحشية،
شجيرة الليمون في اخضرارها المتردد،
مملكة الطحالب الغامضة.

كانت أجراس «كوتان» تُقرع،
والتويجات جميعها تصرخ طالبة شيئاً ما،
والأرض لا تمنح شيئاً،
بلا انتهاء.
كان يرغب في شق الصيف،
أن يحدث به جرحاً أخيراً.
استحال النهر المندفع،
في غضب، هابطاً من جبال «الانديز»،
إلى نجمة عصية
اخترقت الأدغال،
ضفة النهر،
الصخور،
لم يكن أحد يقطن هناك،
غير الماء والطين،
والقطارات المتشحة بالحداد،
القطارات الشتائية،
في غمار مساراتها،
تفصل مقاطع الخارطة،
المتشحة بالوحشة،
مملكتي،
مملكة الجذور،
بمجد النعناع،
ضفائر شعر السرخس،

العظم العاني الرطب،
مملكة طفولتي الضائعة،
حينما كنت أرقب الأرض في مولدها،
وكنت جزءاً من
كمالها
الأرضي،
الرطب.
النور بين الماء والكائن الحي،
في تبرعم الحنطة،
موطن الخشب،
الذي قضى،
في الصراخ المفعم ألماً،
لنشارات الخشب.
الدخان، الحضور، العبق
للشفق
الوحشي
المثقل بالأغلال،
كأسير خطر،
مقيد في أقاليم الأدغال،
في «لونكوشين»،
في «كيتراتوى»،
في ترسانات «مولان»،
وأولدُ

مع حبك،
يا تريزا!
مع حبك الذي ما مست أوراقه الأيدي،
عبر جلدي الظمآن،
كما لو أن شلالات
من براعم البرتقال والعنبر والذرور
قد اجتاحت كياني،
ومنذ تلك اللحظة عينها حملتك
يا تريزا!
دون أن ينالني وهن،
حتى إلى رحاب النسيان،
عبر
عهود متهاوية،
عطراً،
متميزاً،
نافذاً، مثلما أغنية أو لعقة شهد،
أو إغفاءة،
أو مثلما البدر حين يعانق الياسمين،
أو الفجر الرهيف يدنو من الماء،
أو زخم الأرض بأنهارها
أو نشوة الزهور، أو الأسى،
أو جاذبية المغناطيس، أو إرادة
البحر المتألق في رقصته، التي لا تعرف الانتهاء أبداً.

أقاصيص حب: تريزا(٢)

يهل العام، أربعة أرقام،
كأربعة عصافير محظوظة،
تحط على سلك،
إزاء ستار من زمن عار.
لكنها الآن
لا تشدو بالغناء.
التهمت الحصاد، ألحقت الهزيمة
بذلك الربيع،
وزهرة فأخرى غدا كل ما بقي
هو هذا الفضاء الرحب.

الآن، حين تُقبلين لزيارتي،
يا من كنت يوماً أثيرتي، عشقي، فتاتي الخفية،
أضرع إليك أن ترقدي معي،
مرة أخرى،
على النجيل.

الآن، يبدو لي

أن رأسك قد تبدلت
لِمَ
في هذا المجيء،
تغطين بالرماد
شعرك الفاحم البديع
الذي مسدته
في برد «تيموكو» المرقش بالنجوم؟
أين عيناك؟
لم تحدقين فيّ؟
ألترى إن كنت كعهدي؟
أين تركت جسدك الذهبي؟
وماذا صنعت الأيام بيديك المبرعمتين
وبهائك المندى بالياسمين؟

هلمي إلى داري! تأملي البحر معي!
الأمواج، واحدة إثر الأخرى،
استنفدت
عمرينا.
ليس الزبد وحده هو الذي تحلل،
وإنما ثمار الكرز،
الأقدام،
الشفاه،
المنتمية لزمن بلّوري.

وداعاً، أناشدك الآن
أن تعودي،
إلى عرشك العنبري،
تحت البدر!
عودي إلى الشرفة المنداة بالشهد!
واصلي الحياة في
صورتك المتقدة باللهيب!
عودي بمقلتيك
إلى علياء هاتين
المقلتين الأخريين!
حولي نفسك تدريجياً
إلى تلك
الصورة المتقدة!
عودي إلى رحابها
غائرة، عميقة،
بابتسامتك!
وأطلّي عليّ
من سكونها؛ حتى
أراك من جديد،
عند تلك البقعة،
وفي ذلك العهد،
مثلما كنت، ذا يوم، في فؤادك الزدهر!

١٩٢١

أنشودة المهرجان . . . أكتوبر ،
جائزة
الربيع :
«بييرو» يلقي شعري ،
بصوت مدو في الجمع ،
وأنا ، الحافة البديعة
لسيف أسود ، وسط الأقنعة والياسمين ،
أتجول مطبق الشفتين ، وحيداً لا أزال ،
شاقاً الجمع ، بكل كآبة
ريح الجنوب ، تحت الأجراس الصغيرة ،
والرايات المثلثة ، الظاهرة للعيان .
وعندئذ ، كلمة فأخرى ،
بيتاً فآخر ، في داري ، في الطريق ،
أطلّ على الدنيا ديواني الجديد ،
عشرون قصيدة ملحية المذاق ،
مثلما عشرين موجة ، موجات بحر ، موجات نساء .
ومن رحاب رحلة عودتي إلى أرض مولدي ،

مع النهر الهائل، المنداح عند «بورتوسافيدرا»،
وارتطام البحر المدوي كالرعد،
من رحاب وحدتي والقبلات
المختلسة، على نحو مؤلم، من العشق، كما لو أن شجرة
تطل على الحياة وئيدة ورقة فأخرى،
ولد الديوان الصاخب الصغير.
وأبدأ في غمار نظمه،
في قطارات، أو في العودة من المهرجان،
أو في غمار ثورات الغيرة،
أو في ليل الساحل الضارب الأطناب،
في جرح الصيف الهائل،
الذي اخترقه ضياء السماء،
بقلب غارق بالندى،
لم يخطر ببال الشاب الحزين،
الذي شوّشه الحب أن أغلاله،
أن سجن زنزانة أعين بذاتها، ذلك الذي تجرد من الأبواب،
سجن جلد لا يرحم، فم
سيواصل الاحتراق، كل ذلك،
تلك الحميمية، تلك العزلة،
ستظل، تدعم، في كائنات أخرى،
وردة خالدة، قبلة هائلة،
ناراً لا تنتهي من زهور الخشخاش.

أقاصيص حب: المدينة

يهل عشق الصبا، مع مقدم أكتوبر.
حين تحترق أشجار الكزر، في الطرقات البائسة،
وتصرخ العربات، عند المنعطفات،
فتيات كالماء، الأجساد
في طين تشيلي الفجّ، الوحل، الجليد،
والنور والليل الفاحم وقد توحدت من جديد،
الشهد يتقلب في الفراش،
مع روزا، أو لينا، أو كارمن، وقد تعرين هناك،
تجردن، ربما من أسرارهن العديدة،
أو تقلبن غامضات
في العناق، في الانزلاق اللولبي، أو البرج،
أو عاصفة الشفاه والياسمين.
أتراه استحال أمساً أو غداً
ذلك الربيع الهارب؟ آه ياالإيقاع
ذاك الخصر الكهربائي!
الانبثاق الجلي للمني،
مندفعاً من نفقه،

والأصيل يقضي مع زنبقة
وسنى، وبين الأوراق
تمتد أبياتي، وقد نظمت جميعها،
في اختمار محض، في موجة،
حمامة، شعرة هوت.
ياالأقاصيص الحب الهاربة، سريعة الانفلات
الظمأى، ياللمفاتيح توضع في المغاليق،
وذلك الانتصار النابع من المشاركة في شيء ما!
الآن، أحسب أن شعري بدأ،
لا في رحاب العزلة، وإنما في بدن،
في بدن آخر، في إهاب شعاع القمر،
في وفرة قبلات الأرض.

الخـبز ـ الشعـر

أيها الشعر، يا ميراثاً منحتنيه النجوم!
كان ضرورياً
أن أواصل الاكتشاف، سغباً، دونما دليل يقود خطاي
لمنحتك الأرضية،
سنا القمر والحنطة السرية.

بين العزلة والحشود، واصل
المفتاح الضياع، في الطرقات، وفي الغابات،
تحت الأحجار، في القطارات.
ما الإشارة الأولى إلاّ حالة من الإظلام،
نشوة عميقة يمنحها قدح ماء،
جسد يتخم دونما طعام،
قلب يتواضع في غمار كبريائه.

كثيرة هي الأشياء الأخرى، التي لا تأتي الكتب على ذكرها،
إذ هي متخمة بالبريق الكئيب:
أن تمضي في تحطيم حجر رهيف،
أن تحل الحديد في الروح،

إلى أن تنقلب، فتغدو ذلك الذي يعكف على القراءة،
إلى أن يجد الماء صوتاً عبر فمك.

وذلك أيسر من أن يكون الغد الخميس،
وأكثر صعوبة من أن يمر المرء بالمخاض ـ
نداء باطني غريب يسعى وراءك،
ويختفي حين نسعى إليه،
ظل مع سقف مهشم،
ونجوم تتألق عبر ثقوبه:

أصدقائـي المجانـين

فجأة، تجلّت لي حياة الليل.
اكتشفتها، وردة مكنونة
بين يوم ذابل وغده.
لكنما بالنسبة لريفي أقبل حديثاً من الجنوب،
من الأقاليم التي تسودها الطبيعة،
مترعاً بالنار وبالعواصف الجليدية،
بدت حياة الليل مثل قارب،
نوعاً من مرساة السفن.
تفتح الأبواب، ومن قلب الظلمة،
يبصق الضوء علينا.
يرقص الرجال والنساء
بأحذية، كأنها توابيت سوداء، براقة.
ويلتصق أحدهم بالآخر،
كالبطلينوس، وسط الدخان،
والخمر الفجّة والحديث،
والضحكات المنبعثة من أعماق السكارى.
وبين الحين والآخر، تحوّل امرأة متمرغة،

في خوائها الشاحب، نحوي
مقلتيها الذابلتين وفمها.
هناك أمضيت مراهقتي العاصفة ـ
وسط زجاجات النبيذ، سافحاً
ياقوتها المتفجر،
ممتشقاً سيوفها الوحشية،
وخائضاً في غمار تبجحها المجرد من المعنى.
وأصدقائي أولئك
«روخاس جيمينيز»، الضائع في غمار
حساسيته الفائقة،
بحار في عالم النظريات،
تبرهن الوثائق
جنونه، يطرح، في الدخان،
رقته صعبة المراس،
في قدح عقب الآخر،
إلى أن سقط متهاوياً،
كأنما حمله النبيذ ذاته
بعيداً عنا!
يا أخاً، رهيف الشعور، تعلمت
في صحبتك الكثير،
وفقدت الكثير في جموح قلبك،
صندوق مكسور،
لست تدري إلى أين يمضي لسانك،

ولا تعرف أنك بدورك ستلقى حتفك،
أنت يا من كان يمكن أن يعلّم الربيع!
وفيما بعد، مثلما شبح،
ملتزماً ركنه المعتم،
خلال الحفلات،
وصل «جوكان سفيونتيز»،
متحرراً من أغلاله، صديقاً شبحياً،
بوجهه المتشنج في المطر،
ومفرق شعره الحاد،
قاطعاً جبيناً مفتوحاً للألم.
لم يدر كيف يضحك صديقي الجديد،
وعبر أمسيات ضارية، يلفها الرماد،
راقبته يلحق الدمار بنفسه، فارس الموت ذاك.

«وجــه الفــأر»

ثم أقبلت يا أخا الشراب، حاضر البديهة، أبداً،
الضليع في الأنبذة والتجديف،
يا صديقي «راؤول» يا «وجه الفأر»؛
لتعلمني معنى الرجولة.
معاً كنا غارقين في التيه والفخر،
ملكين في ذلك العالم السفلي المزدحم،
صحبني توهج روحك،
مثلما مصباح ودود.
في حضور رفيق ترحال طيب،
لا يظلم الطريق أبداً.
وكانت عوناً، مثلما السيف،
كفك الصغيرة،
يا أخي الرقيق،
الحازم،
وكنت رهيباً في رد الضربة بمثلها، في الروعة
اللاذعة لحديثك المكهرب
فعل صاخب،

شرارة ماثلة دوماً،
تلتمع متألقة منك،
كأنما
كنت نبعاً،
مثل «سرفانتس»،
ضحكة الأوغاد العتيقة الصادرة من الأعماق،
ولسان ماجن، مثل سكاكين صنعت حديثاً.
لم تنبع لغتك تلك من الكتب،
وإنما من إمساكك بلغتك المتألقة،
بريق استمددته من كيانك الأرضي،
تألق ملحمي، نبع من الأمية.
كنت الفاكهة العتيقة للشوارع ذاتها،
ثمرة عنب، متألقة، في عنقود شعبي.

«أرســـى»

من يانصيب الصفحات،
التي سطرتها الأيام والليالي،
يهل «أوميرو» بكنيته المورقة،
واسمه المتوج بالغار،
هكذا كان دوماً خشباً صافياً،
من الغابة ومنضدة كتابة،
حيث كل أثر للحنطة،
مثلما رفيف الملابس الرقيقة،
قلب رائع،
وتاج مغن صامت،
يخلع عليه عرف الغار الذي يستحقه،
يا أخاً يتردد صوت قيثاره الذي لا يخطىء
ورنينه المكنون
رغم أوتاره الخفية.
الموسيقى في قرارك
بريق يتردد.
وأنت ذاتك شعر شفيف.

ها هنا، من جديد، أوجه لك؛ لأنك عشْت
حياتي من أجلي، كما لو كانت حياتك،
آيات شكري وثنائي لهدايا
الصداقة، والصفاء الشفاف،
للنقود التي منحتني إياها،
حينما كنت جائعاً، لليد
التي مددتها إليّ، حين خذلتني الأيادي،
لكل ما أنجزته من عمل،
لإبراز شعري إلى سطح الحياة،
أشكر وأبارك رقتك الحانية.

أقاصيص حب: روزورا (١)

روزورا الودة، ساعات
النهار، تتيه فخراً،
في الوقت القُلَّب
للشفق الواهن في المدينة،
حين تتوهج واجهات المحال،
ويتداعى القلب،
في أقانيمه المجهولة،
كرحّالة ضلّ الطريق،
وقد لفه الليل، في المستنقعات الموحشة.

ما الحب ذاته إلاّ أرض سبخة:
بين رقم في الطريق
وآخر،
يحل بنا الحزن،
يوقعنا الفرح الخالص في شراكه،
جسداً لصق جسد،
شعراً يلتف بشعر،
فماً تلفه قبلة،

وفي حُميّا الانتفاض
تشبع موجة الرغبة،
وتتجمع
طبقات التحلُّب.

آه، يا للعشق بين جسدين،
حين يتجرد من الكلمات،
والذرور الرطب الذي يربط
وحشية خفقات القلب،
الأمس الوعر لرجل وامرأة،
انفجار في الورود،
تويج قاتم مهتز
ينشر ريش الظلام،
نسيج يشع ضوءاً.
أعانقك،
أصدر حكمي عليك،
وأفنى جراء حبك،
وتتباعد السفينتان،
تصدران إشاراتهما الأخيرة،
في حلم البحر،
حلم المدّ،
الذي يعود إلى كوكبه العنيد،
إلى الهموم، إلى النصاعة.

يظل الفراش
وسط
الساعة المارقة،
شفقاً، زنبقة أنبتها المساء.
الآن، رحل الناجون،
وبقيت الملاءات الممزقة،
سفينة
ضائعة الخيوط.
ونواصل التحديق في نهر «مابوكو».
وتتدفق حياتي معه.

روزورا يا سفينة عشقي،
تنساب حياتك مع الماء،
مع الزمن،
سدوداً كونتها الصخور،
جسوراً
تقصدها كل الأقدام المتعبة.
تنساب المدينة بعيداً مع النهر،
خفيفة مع التيار.
والقلب المثقل بالطمي
ينساب راحلاً،
والحب يسافر في دفق الزمن
١٩٢٣ واحد،

تسعة
اثنان، ثلاثة
تلك أرقام،
كل منها في
الماء المنساب عبر الليل،
في دم النهر،
في الطين الليلي،
في الأسابيع،
التي هوت في النهر،
من المدينة حينما مددت يديّ،
سعياً وراء كفيك الشاحبين.
لقد نسيتهما
يا روزورا!
فما أكثر ما تضربان
في الدخان،
نسياك هنالك
في ركن
«كالي سازي»، أو الميدان الصغير،
في «بادورا»، في الوردة ذات الشوك،
بالمسكن الذي تقاسمناه
جمع الفناء
الصغير بقايا
القطط الضالة،

وكان ما نما

بين العاريين
سلاماً من برونز،
وهدأة الضواحي دائمة الحضور.
بين جفوننا،
استرخى الصمت،
كشراب قاتم.
ما أغفينا.
وإنما تأهبنا للعشق.
طرقنا
دروباً جانبية،
التعب،
والرغبة،
وهناك، أخيراً، كنا
متحررين، دونما ثياب، ودون إقبال أو إدبار،
وهدفنا
كان التدفق،
كأنما ملئنا حد الاسكاب
بحمض سائل
ثقيل،
صامت،
لا يكف عن الالتهام،

مادة
أُترع بها قالب عجيزتك
ونقاء فمك المراوغ .
روزورا
أيتها الماضية بعيداً،
ملتفة بلون الماء
القادم من «كوريشو»، حيث يفنى اليوم،
ملتفاً
بالثلوج الكثيفة
المتوجة لهامات الجبال،
كنت طفلة
البرد
وقبل أن تفني،
في طوب
الجدران المرهقة،
أقبلت إليّ؛ لتبكي أو لتعرفي الميلاد،
لتحترقي في عالمي الحزين،
وربما لم يكن هناك المزيد
من النار في حياتك،
ربما ما عرفت الوجود، إلاّ في تلك اللحظة .

قلبنا الدنيا بين الفينة والأخرى،
ظللت في الظلام .

وواصلت ضياعي راحلاً ،
متلفاً يدي ومقلتيّ .
تركت الشفق ورائي ،
انتزعت زهور الخشخاش المسائية .
انقضى يوم ، وحمل
معه ليلة ،
أسبوعاً جديداً ،
ورقد عام إلى جوار الذي يليه .
كبر الزمان ،
قطرة فأخرى ،
مثلما نمت الشجرة الشفافة ،
وريقة فأختها .
والمدينة ، التي اكتسحها الغبار ،
تحولت من الماء إلى الذهب .
أحرقت الحرب الأطفال والعصافير ،
في أوروبا العتيقة البالية .
من «أتاكاما» امتدت
الصحراء في الرمل ،
في النار ، والملح ،
فغالت الجذور .
تقلبت الكواكب الشاحبة
في زرقتها الحمضية .
مسّ إنسان القمر .

مضى المصور
من رسم الوجوه
إلى تصوير العلامات والندوب -
وأنت ماذا كنت تصنعين
دون خواء
الألم والعشق؟
وأنا ماذا كنت أصنع
بين وريقات أشجار الأرض؟

روزورا، الخريف، بعيداً
بدر من شهد رهيف،
حرس تعرى من الدوي،
وبيننا النهر ذاته،
«مايوكو» الذي انساب
لاعقاً الجدران والدور،
داعياً النسيان،
تماماً مثلما فعل الزمان.

أقاصيص حب: روزورا (٢)

ما الحب إلا محور حياتنا.
رفاه البدن، الوجيب،
الذي يولد ويبعث
استمرارية
الجسد
في النشوة
وإيماءة الاحتضار تلك،
التي تنيرنا إلى أن تنطفىء.
من أجلي، من أجلك،
تفتّح ذلك الفرح،
مثلما الوردة،
الوحيدة،
في الضواحي، التي لا تكترث بأحد،
في زخم شبابنا رث الثياب.
حينما تآمر كل شيء؛
ليرحل بنا إلى رحاب الموت وئيداً،
ذلك أنكِ كنتِ وسط المؤسسات،

وقد بال عليك البغاء والخديعة،
لا تدرين ما تصنعين.
سلبنا الحب لبّنا،
وكنا ضعافاً، في غمار براءتنا.
لطّخ الدخان كل شيء،
والغاز الأسود،
لوّث
الأماكن والعربات.

سفح قرن بكامله من الزمان
بهاءه الفاني،
سقطت خضرة
رؤوسه المبتورة،
وقطرات الدم
من الطُنُف.
لم يهطل المطر، وما كان
للمظلات من جدوى.
كان الزمان يحتضر
وعجز الأزواج
عن المضي معاً،
ذلك أن الحكام، من علياء عرشهم،
أصدروا
فرمان الجوع القاتل،

وغدا الموت إلزاماً،
على الجميع أن يلقوا حتفهم.
كان ذلك واجباً،
انعقد الإجماع على ذلك،
وكتب على الجبين،
وجدنا، وقتذاك،
في وردة الجسد،
ناراً مرتعشة.
وأوغل أحدنا في الآخر،
حتى الألم،
عشنا،
نُتْرِع بالجراح ذواتنا.
هنالك طرحت الحياة
جوهرها النقي:
رجل، امرأة
واختراع النار.

أفلتنا من اللعنة،
المحوّمة فوق
الهباء، المدينة ـ
الحب في مواجهة الاستئصال،
بالحقيقة
المسلوبة،

المزدهرة من جديد،
فيما هم يعلقون الحب بالمسامير،
على صليب هائل،
ويحظرونه،
ما كنتُ أحداً، ولم تكوني أحداً،
ما كنا أحداً،
قاومنا، جمرة فجمرة،
قبلة فقبلة.

تنبت وريقات شجر جديدة.
إنهم يطلون الأبواب باللون الأزرق.
ثمة سحابة كحورية ماء
ويحلم كمان تحت الماء.
ويسود مناخ كهذا كل مكان.
إنه الحب يزهو بالانتصار.

السفـرات الأولـى

بعزم لا يغيض، مضيت أول مرة إلى رحاب البحر.
كنت أشد فتوة من الدنيا بأسرها.
وعلى الساحل، إصّاعد لمقدمي
عُرف الكون الطلق أبداً.

لم أدرِ أن الدنيا على قيد الوجود.
كَمُن يقيني في برج مدفون.
اكتشفت فيضاً في زمن جد قليل،
في غمار اكتشافاتي الشفقية،
في تنهدات العشق، في الجذور،
أنني الشريد، الضارب في الآفاق،
المالك المسكين لهيكلي العظمي.

أدركتُ، عندئذ، أنني عار،
وعليّ أن أكسو ذاتي.
لم أحمل الأحذية قط محمل الجد.
ما عرفت الرطانة باللغات،
والسِفْر الوحيد، الذي استطعت قراءته، كان كتاب ذاتي.

والحياة الوحيدة، التي عرفتها، هي حياتي المكنونة.
أدركت أن ليس بمقدوري
مناداة نفسي؛ لأني لن أحير جواباً.
لقد استنفدت تلك الفرصة،
ونعب الغراب: لا مزيد، لا مزيد.

تراجعتُ عائداً إلى أشياء كالسحب،
كل قبعات العالم،
الأنهار، قاعات الانتظار، الأبواب،
والأسماء، فيض الأسماء، التي يستغرق
استيعابها حياتي القدسية كلها.

حفلت الدنيا بنساء،
احتشدن، كأنهن في واجهة للعرض،
ومارا بالجدائل، التي عرفتها كافة،
بالنهود، بالأفخاد البديعة،
علمت أن ڤينوس ليست أسطورة فحسب.
كانت شيئاً يقينياً، صلباً، وذات
ذراعين قادرتين على الاحتمال،
وأفنى عرق لؤلؤها القاسي
طموحي الشهواني.
لاح كل شيء جديداً بالنسبة لي. وهذا الكوكب بكامله
كان يحتضر من الشيخوخة المحض،
لكن كل شيء كان يتفتح أمامي؛ لأعايشه،

كي ألمح الوميض الباهر، كالبرق.
وبعينيّ، اللتين تحاكيان مقلتّي مهر صغير،
رأيت الستار المرير يرتفع،
صاعداً بابتسامته الثابتة الدنيوية،
كاشفاً في انفتاحه عن أوروبا الذاوية.

باريــس ١٩٢٧

باريس، الوردة الفاتنة،
نسيج عنكبوت عتيق،
هنالك كانت، مفضضة،
بين زمن النهر المتدفق،
وعهد الركوع في نوتردام،
خلية نحل بري،
مدينة للعائلة البشرية.

أقبل الجميع إلى هناك (دون أن نحصي جوّابي الآفاق)
من بلادي العارية.
هنالك تجوّل المتمهلون،
مع فتيات مجنونات من تشيلي،
مضيفين المزيد من العيون النجلاء إلى الليل
الجيّاش. ولكن أين كانت النار؟

رحلت النار عن باريس.
وما بقي كان ابتسامة عريضة،
تحاكي عنقوداً من لؤلؤات حزينة،

ونثر الهواء غصناً مكسوراً
من الأهواء والأعذار.
ربما كان هذا كل ما هنالك:
دخان وثرثرة. سيغادر الليل
المقاهي، ويهل النهار،
مقبلاً على العمل كعامل كادح،
ينظف الدرج،
فيكنس العشق والغضب.

لا يزال بعض رقصات التانجو مرتمياً على الأرض،
صلبان من أعالي كنائس كولومبيا،
عوينات وابتسامات يابانية،
ثمار بندورة من أوروجواي،
جثة هضيمة من تشيلي.
كل شيء سيُزال،
تكتسحه نسوة هائلات، عاكفات على التنظيف،
سينتهي كل شيء للأبد،
رماداً بديعاً للغرقى،
الذين ألقوا بأشباحهم الغامضة،
إلى رحاب النسيان الطبيعي، في نهر السين.

الأفيون في الشرق

من سنغافورة فصاعداً، تفعم الأنوف رائحة الأفيون.
كان الإنجليزي الشريف يدرك حق الإدراك وجوده.
يدين في جنيف
من يتاجرون به سراً،
ولكن في المستعمرات تنساب
من كل ميناء سحابة من الدخان المشروع،
تحصى قطراتها، يؤذن باستحلابها، وتكسى برداء القانون.
يثور الغطريف القادم من لندن،
نقي الثياب كالقُبّرة
(في سراويل مخططة ودرع منشّى)،
حنقاً على بائعي الأحلام،
لكنه ها هنا في الشرق،
ينزع قناعه،
ويتجول بائعاً الخمول، عند كل منعطف.

أردت أن أعرف، دلفت إلى الأغوار، لكل مقعد
شاغله الغارق في السبات.
ما من أحد كان يتحدث. لا أحد يضحك. ظننت

أنهم يدخنون في صمت مطبق،
لكن الغلايين قرقعت إلى جواري،
حين التقت الإبرة باللهب
مع تلك البرودة الزاحفة للصدر،
أقبلت بهجة نشوى تصاحب الدخان الحليبي،
فتح باب
بعيد على خواء يغوي الأنفس.
كان الأفيون زهرة السبات،
النشوة المشلولة،
النشاط المحض، دونما حراك.
كان كل شيء كمفصلة أغرقها الزيت،
ليغدو مجرد وجود.
ما من شيء احترق، لا أحد انخرط في البكاء.
فما من مجال للألم المبرح.
وما من وقود للغضب.

تلفّت حولي، يا للضحايا البؤساء!
أقنان، حمالون من مجمعات الريكشو والمزارع،
حمير شغل كفت عن العمل،
كلاب ضالة،
فقراء نالهم الكرب.
ها هنا، بعدما طالتهم الجراح،
إثر ما جُرِّدوا من آدميتهم، فما عادوا إلاّ أقداماً،

بعدما تحولوا من رجال إلى دواب للجر،
وإثر الإيغال في السير والسباحة في العرق،
ونزف العرق الدموي وفقدان الروح،
ها هم يجلسون،
وحيدين،
متمددين،
عانقوا الأرض أخيراً، ذوو الأقدام الثقيلة أولئك.
كل منهم قايض لقاء الجوع
حقاً غامضاً في المسرة،
وتحت عرش السبات،
حلماً كان أو خداعاً، حظاً أو موتاً ها هم،
أخيراً يعرفون الراحة، ما تاقوا إليه طول أعمارهم،
ينالون التوقير، أخيراً، على نجم من صنع خيالهم.

رانجـون ١٩٢٧

متأخراً جئت إلى رانجون.
كان شيء ماثلاً هناك ـ
مدينة
من دم،
أحلام وذهب،
نهر يتدفق،
من الدغل الوحشي،
إلى المدينة خانقة الأنفاس،
وشوارعها المجذومة،
وفندق أشهب للنزلاء البيض،
ومعبد ذهبي لأرباب الذهب
ذلك ما
كان دائباً،
ولم يقدّر له الاستمرار.
رانجون، دُرُجٌ لطّخها
باصقو
عصير التنبول،

فتيات من بورما،
يسدلن الحرير
على عريهن،
كما لو كانت النار،
بألسنة قرمزية،
تشارك في
رقصتهن، الرقصة
الفائقة:
أقدام تمضي رقصاً نحو السوق،
سيقان ترقص في الشوارع.
الضوء المحض، الشمس في سَمتْها
تهاوتْ فوق شَعري، اقتحمت عينيّ،
واندلعت عبر عروقي،
إلى كل ركن في بدني،
واهبة إياي مجد
عشق منقّى بلا حدود.

كانت على هذا الحال، وجدتها،
إلى جوار السفن ناقلة الحديد،
قرب مياه نهر «مرتابان»،
العكرة، وعيناها،
تنشدان رجلاً.
كان لها بدورها

بريق الحديد الصلب .
وتألقت الشمس
في شعرها المقصوص ، كحدوة حصان حديدية .

يا حبي الذي لم أعرفه !
جلست قربها ،
غاضاً البصر عنها ،
لأنني كنت وحيداً ،
وما رغبت في الأنهار أو الشفق ،
أو المحبين أو الأقمار ـ
وإنما أردت امرأة .
أردت مداعبة امرأة والإمساك بها ،
امرأة للعشق ، امرأة للفراش ،
فضية ، زنجية ، عاهرة ، عذراء ،
ملتهمة للحمم ، زرقاء ، برتقالية ،
ما كان ذلك يعنيني .
أردت أن أعشقها وألا أعشقها ،
أردتها للفراش وللمعيشة ،
رغبتها دانية ، جد قريبة ،
حتى لأحس بأسنانها في قبلاتي ،
أردت عُرْفَها النسائي .
كنت أحترق ، ذاهلاً ، في غمار توقي إليها .

ربما أرادتْ

ما رغبتُ فيه. وربما لم ترده.
ولكنّا هناك في «مارتابان»، قرب النهر المثقل بالحديد،
وحين أقبل الليل من رحاب النهر،
مثلما شبكة متخمة بسمكة هائلة،
مضينا نغرق سوياً، أنا وهي،
في مباهج اليائسين المريرة.

الديـن فـي الشـرق

هناك، في رانجون، أدركت أن الآلهة
هي أعداء الكائن البشري البائس،
تماماً مثلما هو شأن الرب.

آلهـة

من المرمر جاثمة،
كَحِيتان شهباء،
آلهة مذهّبة كالحنطة،
آلهة ثعبانية، ملتفة حول
جريمة ميلاد المرء،
تماثيل لبوذا عارية، بديعة،
تبتسم مطلة على حفلات شراب،
يقيمها الأبد الخاوي
وشأن المسيح على صليبه المخيف،
جميعها على استعداد لكل شيء ـ
لتفرض دوسها علينا،

بالعذاب أو الغدّارة
لتبتاع تقوانا، أو تُعْمِل النار في دمانا،
آلهة وحشية اصطنعها بشر؛
ليحجبوا جبنهم،
وهكذا كان الأمر كله هناك،
يمور العالم بالفردوس،
وبالأسواق الفردوسية الهائلة.

ريــاح المونســـون

مضيت لأقيم عبر البحر.

شِيدتْ داري في أماكن سحرية،
فصلاً من الأمواج،
من الريح والملح، عيناً وجفوناً
لنجمة أعماق مائية عنيدة،
بديع هو زخم الشمس.
وفرة خضرة النخيل،
على حافة غابة من القلوع والثمار،
ونهر أشد قسوة من حجر أزرق،
تحت سماء تتلوّن مجدداً كل يوم،
وما أقبل قط زورق رقيق لسحابة،
وإنما تجمع عبثي -
لرعد مدمدم وماء يهوى
في شلالات، فحيح غضب -
وفوق الرؤوس تنفجر المونسون الحُبلى،
مفرغة حقيبة قوتها الهائلة.

ذاك الضيــاء

منحني ضياء سيلان الحياة،
ووهبني الموت في آن؛
لأن العيش داخل ماسة،
هو درس تحفه العزلة، في شعور المرء بأنه قد دُفن،
يحاكي التحول إلى طائر شفيف،
عنكبوت، تنسج خيوط السماء، وتقول وداعاً.
آلمني ذاك الضياء في الجزيرة،
تركني حذراً طوال عمري،
كما لو كان وهج مشهد غامض،
سيشد وثاقي إلى تراب الأرض.

أقبلتُ أشد غُربة من السباع الأميركية،
وغرقتُ في العزلة، فما من أحد يعرفني؛
ربما لأن ذهني أنهكه
الضوء الفردوسي المنسكب
(ضوء يسّاقط فوق حلتي القاتمة،
ويتغلغل مخترقاً الثياب والإهاب،
ومن يوم أتجلد؛

لأبقي نفسي عارياً كل يوم).
ربما لن يسع أحد الفهم،
ما لم يعرف الضياع على نحو ما كنت،
ما لم يشعر بالبعد عن الآخرين، مثلما أحسست
كومة من الفحم في الليل.

ثمة، ما كان إلا الخبز، والضياء.

الضياء في كياني، الضياء في المطبخ،
ضياء ليلي، ضياء صباحي،
وضياء بين مُلاءات الفراش،
جمّ التشابك، يلتهمه
الوضوح الضاري لمصيري،
لم يبق إلاّ العيش،
بين اليأس والسطوع،
شاعراً بأني منبت
عن هاتيك الممالك، التي ما كانت ممالكي.

تواصل الشباك المرتعشة في الضياء
التألق من البحر.
ويبقى ضياء الزمان كله،
وبرج ضياء القمر الهائل.

الآن يلوح لي كل شيء ظلاً.

أقانيـم

حيثما كنتُ تعاودني ذكرى مغاني الأرض،
كما لو كانت تواصل الإمساك بناصيتي،
تعاقب الوجوه: «باتاي»، «ايلين»، «أرتياها».
أبحث عنهن في الشباك، فيسبحن مبتعدات،
عائدات إلى محيطهن،
أسماكاً بالماء البارد، نسوة عابرات.
لكن الساحل أو الجليد، الصخرة أو النهر،
جُبِلَ معدني من الجبال،
أسنان تضاريس الأرض،
لا يزال أثر الأقدام مرئياً على العشب.
إنه صمت الصيادين.

لم يضع شيء مني، ولا يوماً واحداً معلقاً فوق الرؤوس،
ولا نثاراً قرمزياً من ندى،
ولا عيون الفهد تلك،
المتقدة، كسكِّير غاضب،
ولا درقيات الغابات الوحشية،

أنشودة الإيناع الهائلة، المغناة طوال الليل.
ولا الليل، بلادي المرصعة السماء بالنجوم،
ولا تنفس الجذور.
تبرعمُ الأرض الربيعَ، كأنها تحيا
فيّ، أغمضُ عينيّ، ها أنذا.
أغمض عيني، فتتفتح سحابة،
ينفتح باب على هبة عطر،
يلج نهر صادحاً، بأحجاره،
فتنسل برودة الأماكن إليّ،
يلتم الخريف الدخاني في
تماثيل كنائسها الذهبية،
وحتى عقب موتي سترى
كيف أني لا زلت ألتمُّ في الربيع،
كيف أني ألملم حفيف الحنطة،
وأن البحر يقبل، عبر مقلتي المدفونتين.

هاتيك الحيوات

من هذا جُبِلْتُ، هكذا سأقول؛ لأترك
عذراً مكتوباً. هذه حياتي.
الآن غدا جلياً أن ذلك عصى الاجتراح.
أن الخيوط ليست وحدها ما يهم في هذه الشبكة.
وإنما كذلك الهواء الذي يهرب عبر العيون.
وبقي كل شيء آخر بعيد المطال،
الوقت يمضي سريعاً، كأرنب بري،
عبر ندى فبراير،
والحب، خير ألاّ نتحدث عن الحب،
الذي يمضي اهتزازة ردفين،
دون أن يترك من كل نيرانه أثراً،
إلا ملء ملعقة من رماد.
ذلك هو حال أمور كثيرة تنقضي:
الرجل الذي ينظر مصدقاً، بالطبع،
المرأة التي كانت تنبض بالحياة، ولن تعود كذلك،
كلاهما صدّق أنه إذا كانت للمرء أسنان،
قدمان، يدان، لسان،

فالحياة ليست إلاّ مسألة شرف.
ألقى نظرة على التاريْخ،
استوعب انتصارات الماضي كلها،
ظنّ أنه سيحظى بوجود أبدي،
وكان كل ما منحته الحياة هو
حتفه، زماناً تُسلب منه فيه الحياة
وأرضاً يتوسدها، في النهاية.
لكن كل ذلك ولد بعيون
مقدار ما هنالك من كواكب في قبة السماء،
وكل نيرانها النهمة
التهمتها، دونما رحمة، حتى المنتهى.
لئن تذكرت شيئاً في حياتي،
لأذكرن أصيلاً في الهند، على ضفتيّ نهر.
كانوا يحرقون امرأة من لحم ودم.
ولم أدرِ ما إذا كان ما يتصاعد من الناووس،
روحاً أم دخاناً،
إلى أن فنيت المرأة والنار،
ولم يعد ثمة تابوت أو رماد. طال الوقت،
ـَحْدَهُ الليل، الماء، النهر، الظلمة
ـِاصل الحياة، في غمار ذلك الموت.

وئيداً، وعبر انتفاضات هائلة كذلك،
داهمتني الحياة،
ولشد ما كان ذلك أمراً عارضاً!
حَمَلَتْ هذه العروق
دمي الذي بالكاد رأيته،
تنسمت هواء أرجاء شتى،
وما استبقت رئتاي نسمة منها.
وفي المنتهى يدرك الجميع هذا:
ما من أحد يستبقي ما تملكه يمينه،
وما الحياة إلا عظاماً تستعار.
وكان أفضل الأمور الاعتدال،
في الأسى والفرح،
أن تعلق الآمال على فرصة نيل قطرة أخيرة،
وأن تنشد المزيد من الشهد ومن الغسق.

ربما كان ذلك جزائي.
ربما حكم عليّ بأن أكون سعيداً
ألا أبلغ عني أنه ما من أحد

عبر دربي إلا شاركني وجودي.
غُصتُ، حتى العنق،
في شدائد لم تكن ضرائي،
أوغلت في معاناة الآخرين،
لا حباً في المديح أو النفع.
إنما كان الأمر أهون. كان اباء
للعيش أو التنفس في هذا الظل،
ظل آخرين كالأبراج،
كالأشجار المريرة، التي تدفنك،
كالحصى راكعاً على ركبتيك.

بالبكاء تشفى جراحاتنا،
بالغناء تبرأ،
لكن على أعتابنا يتمدد، في غلالة من دم،
أرامل، هنود، بؤساء، وصيادون.
فما يتعرف ابن عامل المناجم أباه،
في عجاج ذلك العذاب.
ليكن الأمر كذلك، لكن همي
كان
زخم الروح:
صيحة فرج تأخذ بخناقك،
تنهيدة نبتة اجتثت من جذورها،
جوهر كل الحراك.

أفعمني سروراً أن أهب مع الصباح،
أستحم في الشمس،
في فرحة ذُكاء
الهائلة، والبحر يمجُّ النورَ والموج.
وفي غمار هذا الزبد، الذي لا يعرف التراجع،
بدأ قلبي في الحراك،
نامياً في ذلك الجيشان العاطر،
ومتراجعاً مع انحساره في رحاب الرمل.

أَلَـقْ النهـار

كفى بعيني الشتاء المخضلة الآن باكياً،
ولا استعبرت قطرة أخرى.
فما بين ساعة وأختها، تبدأ الخضرة
الموسم الحق، وريقة فأخرى،
إلى أن ندعى، باسم الربيع،
لنشارك في الغبطة.

ما أبدع كماله الأبدي،
الهواء الوليد، وعد الزهرة،
والبدر حين يترك بطاقة في الإيناع.
والرجال والنسوة يصدرون عن الشاطىء،
بسلة ندية،
من الفضة المتألقة.
وشأن العشق، مثلما وسام،
ألملمُ،
ألملمُ،
الجنوب، الشمال، القيثارات،
الكلاب،

ثمار الليمون، الصلصال،
الهواء الذي عرف الانعتاق لتوه.
ألملمُ أجهزة تصوع بالغموض.
وابتياعي للأشياء الملون بالعاصفة
كل ما احتاجه؛
زهيرة برتقال، خيط،
أعناب، كأحجار التوباز،
عُرْف الأمواج
أتجمعُ
بلا انتهاء،
دونما ألم،
أستنشقُ،
أجفف ملابسي، مع الريح،
وقلبي المفتوح.
تدنو السماء،
تقبل،
ومن قدحي،
أرشفُ
الفرح صافياً.

الرسائل الضائعة

أطالع ما دبجوه عني
مستعجل الخطى، وأوشك ألاّ أراه،
كأني لست المقصود به حقاً،
الكلم الطيب والخبيث.
لا لأني أرفض فحسب قبول
الحقيقة، سيئة كانت أو بديعة،
التفاحة النضرة هدية،
أو بالمقابل الروث المسموم.
مناط الأمر شيء آخر
شيء ملاكُه ذاتي، جلدي، شعري،
أسناني،
النحو الذي ارتكب عليه أخطائي،
شيء يمس بدني، ظلي.
ساءلت نفسي، وساءلني الآخرون لماذا، لماذا
يقبل آخر، متجرداً من الحب، شاحذاً الكلمات،
يقتحمني، ينهال طرقا،
وبمسمار

يخترق خشبي، كدحي،
حجري، ظلي،
العناصر التي منها جُبلت؟

لم أُستهدفُ؟ إني بعيداً أحيا،
لا وجود لي في نواظرهم، لست أمضي،
لا أجيء.
لم تنقِّر طيورُ الأبجدية
أظافري ومقلتي؟
أيتعين عليّ تملقهم أم الوجود حقي؟
إلى من أنتمي؟
كيف ارتهنت وجودي
حتى ما عدت أنتمي إلى ذاتي؟
كيف بعت دمي؟
ومنذا الذي يملك الآن
ضروب حيرتي، يديّ، ألمي، كبريائي؟

أحياناً يتملكني الخوف
من السير على ضفاف أنهار غريبة،
من التطلع إلى براكين،
عرفتها دوماً وعرفتني أبداً،
أحياناً أحس من أسفل، من أعلى
بقبضة الماء والنار ضاغطة.
يظنان أني ما عدتُ بالحق أنطق.

هكذا، وملء القلب حزن،
أطالع أموراً قد لا تكون باعثة على الحزن،
وإنما ودودة أو حانقة،
أو مترعة برسائل خفية.
غير أنه بالنسبة لي،
كان يمكن لكلمات كثيرة
أن ترحل بي بعيداً عن عزلتي.
مضيت عبرها لاهياً،
دونما ضيق أو استخفاف،
كأنما هي رسائل،
رسائل إلى آخرين،
آخرين مثلي، لكنهم بعيدون عني،
رسائل ضائعة.

ليس في الذكرى شفيف السنا

ليس في الذكرى شفيف السنا،
لا ولا فيها جلى الظلال،
فمعاً انداحا في لون الرماد،
درباً توّشح بالقتام،
تعاورته، بلا انتهاء، أقدام أولئك،
الذين قدموا السوق، وصدروا عنه،

وثم ذكريات أخرى تنشد، لا تزال، ما تمضغه،
شأن أسنان ضارية لا تعرف الاكتفاء،
تطحننا حتى العظمة الأخيرة، ملتهمة،
الصمت المترامي لكل ما يكمن خلفنا.

وثم يرقد كل شيء، الليالي، الأسحار
الأيام تمتد كجسور عبر كتل الظلام،
المدن، الدور المطلة على العشق، والأسى،
كأنما تفحمت الحربُ الذاكرةَ،
وحملت كل شيء بعيداً، قطعة فأخرى،
حتى تهب عبر الأبواب المكسورة.

الريح على الأرفف الخاوية
وتجعل مقلتي النسيان تتراقصان.
لذا يقبل نور النهار بلهب وثيد،
وعشق، وهبة من ضباب بعيد،
وشارعاً فآخر تعود المدينة دونما رايات
تخفق؛ ربما لتحيا في دخانها.

درّزت الحياة ساعات الأمس،
تدلت من إبرة لطّخها الدم،
بين قرارات ما عرفت التنفيذ بلا انتهاء،
تلاطم البحر والشك الدائب،
رعشة السماء وياسمينها.
من ذلك الأنا الآخر الذي لا يعرف
كيف يبتسم والذي لقي حتفه من محض الحداد؟
منذا الذي احتمل قرع الأجراس وزهور القرنفل
مدمراً دروس البرد؟
تأخر الوقت، تأخر، لكني أمضي من مثال إلى آخر،
دون أن أدرك المغزى؛
لأني في حيواتي العديدة كنت غائباً.
ها أنذا الآن، وإني كذلك الإنسان الذي كنت
معاً في آن.
ربما كان الأمر كذلك، الأحجية الحقيقة.
الحياة، ذلك الدفق الدائب من الخواء،

الذي أترع هذا الكأس بالأيام وبالظلال،
دفن الوهج كله، مثلما أمير من زمان غابر،
في بردته اللينة، المعدنية،
إلى أن نغرق في التراجع، حتى ما يعود لنا وجود.
أن تكون ولا تكون ـ تلك هي الحياة.

من كل ما كنتُه لا أحملُ إلاّ هذه الندوب القاسية؛
لأن هاتيك الأحزان تؤكد وجودي ذاته.

النـار الضاريـة

النـار الضاريـة

النار الضارية

يا لتلك الحرب! أسقط الزمن
من قبضته عاماً، فآخر، فثالثاً.
كأنها تراب
ليدفن
تلك الأشياء التي تأبى الفناء: زهور القرنفل،
الماء
السماء
أسبانيا التي طرقت
بابها؛ علّها تشرعه لي،
هناك بعيدا،
وغصن مؤتلق
تلقاني مهللاً في الصيف،
منحني الظل والصفاء،
وجِدةَ
نوره العتيق، الذي تدفق،
وافراً،

في غنائه،
أغنية عتيقة تجدد النشاط،
باحثة عن
صوت
جديد يشدو بها.
مضيت إلى هناك؛ عليّ أجد أغنيتي،
لطالما غنيت، وتحدثت،
عما وهبتني اسبانيا بيدين معطاءتين،
وعما سلبتنيه، في غمار المعاناة،
ما نزعته بين لحظة وأخرى،
من حياتي،
تاركة في الحشا
نحيباً فحسب،
نحيب الريح في كهف مرير،
نحيب الدم في الذاكرة،
يا لتلك الحرب! ما غاب عنا النور،
ولا الحق،
ما غاب عنا الفرح، وإنما احتجب الخبز.
كان هناك الحب، ولكن لا فحم.
كان هناك رجال، وجوه، عيون، شجاعة،
أعدوا النفس لمواجهة الروع
لكن الأيدي إسّاقطت، كزهور مقطوفة،

حتى دون أن تلحق الهزيمة بها،
هكذا كان الأمر، قوة رجال، مضاء روح،
ولكن لم تكن هناك بنادق،
الآن أتساءل،
بعد وقت طويل انداح في رحاب النسيان،
ماذا كان بوسعنا أن نفعل؟ ماذا كان بوسعنا أن نفعل؟

ردّوا عليّ، أيها الصامتون،
السكارى بذلك الصمت، الحالمون،
في ذلك السلام الزائف، ذلك الحلم الزائف،
ماذا كان بوسعنا أن نفعل بالغضب وحده؟
بالقبضات وحدها، الشعر، العصافير،
المنطق، الألم، ماذا كان بوسعنا أن نفعل بالحمائم؟
ماذا كان بوسعنا أن نفعل بالبراءة والغضب،
حينما تنداح أمام عينيك وفرة
الدنيا
ويسيطر
الموت
على المنضدة،
الفراش،
السوق،
المسرح،
دار الجيران،

ويزحف مندرعاً من «الباسيت» و«سورايا»،
على الساحل في السهل، عبر المدينة والنهر،
شارعاً فآخر،
ويصل،
ونحن لا نملك إلا جلدنا نقاتل به،
راياتنا فحسب، وقبضات أيدينا،
وشرفنا، الألم والنزيف،
وبأقدام مهشمة.
على التراب والحجارة،
في طرقات «قطالونيا» الوعرة،
تزحف،
تحت الرصاصات الأخيرة،
إلى المنفى. آه يا لأخوتي الشجعان!

الموتى:

وفيما بعد، حلت تلك المصارع، التي ألحقت بي
جم الألم، جم الأسى،
كأنما حطمتني، عظمة فأخرى،
مصارع شخصية،
عبرها نلقي حتفنا بدورنا

ذلك أنهم علقوهم على صليب إسبانيا،
«فديريكو» و«ميجيل»،

غرسوا المسامير في مقلهم وألسنتهم،
سفحوا دمهم وأحرقوهم إحياء،
كالوا لهم السباب، وأهالوا عليهم الإهانات،
ألقوا بأجسادهم الهضمية
إلى الوهاد؛
لهذا السبب، لتلك الفعلة، لأن ذلك هو ما صار إليه الأمر،
هكذا بوحشية عُوملوا،
صُلبوا،
حتى التصقت ذكراهم،
من بين كل موتي إسبانيا،
بطنين الذباب،
حول الأردية القدسية.
صيحات السخرية والبصق وسط الأسلحة،
مثلما الهياكل العظمية الصغيرة
للعنادل،
وقد شدّ وثاقها إلى دار العظام الرهيبة،
قطرات من الشهد النازف،
ضائعة،
وسط الموتى جميعاً.

أتذكر

بشهادتي أدلي!
كنتُ
هناك
كنتُ هناك،
وعانيتُ، وإني،
لأشهد،
وإن لم يعد أحد
لتحوم حوله الذكرى،
أني
الوحيد الذي يتذكر،
وإن لم تبق على الأرض مقل،
سأواصل الرؤية
وذاك الدم
سيسجل هنا،
سيظل ذلك الحب يتعثر هنا
لا مجال للنسيان، أيها السيدات والسادات،
وعبر فمي الجريح،
ستواصل تلك الأفواه الغناء!

انهمر سيل من الزمان

ثم أقبلوا، ثقالاً كالثيران،
مثلما ست وعشرين غرارة من حديد،
قروناً تضمها اثنا عشر شهراً،
حجبت عن إسبانيا
الهواء، الكلمات،
الحكمة،
معيدة الحجر والهاون،
والمقبض والرتاج،
إلى هاتيك الأبواب التي فتحت لي،
خلال ذاك الضحى الذي لا ينسى،
اعتاد العناء الصبر
وتعثر الأمل في المنفى.
وزهرة إسبانيا
نمت وانتشرت،
في كاراكاس النبيلة، في «سنتياجو»،
في «فيراكروز»، في رمال
أوروجواي الكريمة.

بعثة المحبة

حملتهم على متن سفينتي.
ضرب النهار أطنابه، وارتدت

فرنسا ، في تلك المناسبة ،
رداءها اليومي البديع ،
النبيذ الرائق عينه ، والهواء ،
أردية إلهة شجرية ،
كانت سفينتي
باسمها الغريب ،
«وينيبيج» ،
تنتظر ،
راسية ، قرب حديقة على أحرّ من جمر ،
كرمات تدلت منها أعناب أوروبا القوية .
لكن مواطنيّ الأسبان ما كانوا يتوافدون
من فرساي ،
بمراقصها البديعة ،
وسجادها العتيق ، الكث ،
وكؤوسها المترعة
بالنبيذ ،
لا ، لم يأتوا من هناك ،
لا ، لم يأتوا من هناك ،
وإنما أقبلوا من بعيد ،
من الميادين والسجون ،
من رمال الصحراء
السوداء ،
من المخابىء المريرة ،

حيث ارتموا
عراة يتضورون،
أقبلوا إلى سفينتي
المؤتلقة،
في البحر هناك، إلى رحاب أمل
جاؤوا، وقد بلغهم النداء واحداً فآخر،
ندائي، من زنازينهم،
من قلاع
فرنسا المتداعية
أقبلوا،
جمعهم صوتي.
«سافيدرا»، هتفتُ، فأقبل البنّاء.
«زونيجا» قلتُ، فمثل أمامي.
«روسيس»، ناديتُ، فأقبل بابتسامته الجادة،
«البيرتي»!، صحت فهلّ الشعر.
بيديه البلّورتين.
فلاحون، نجارون،
صيادون،
ميكانيكيون، خراطون،
خزافون،
دباغون.
كانت السفينة الراحلة إلى وطني
تغص بهم،

تحسست بين أصابعي
بذور،
إسبانيا
التي أنقذتها ونثرتها،
على البحر نحو
سلام
البراري

أجمع شملهم

أي فخر استشعرته حينما
راحت السفينة،
تنبض
وتبتلع
المزيد والمزيد من الرجال، عندما
وصلت النسوة،
اللواتي فارقن الأخوة، الأبناء، والعشاق،
حتى اللحظة عينها
التي
فيها
جمعت شملهم
وغربت الشمس في البحر،
على

هاتيك
الأرواح المهجورة،
وسط الدموع الوحشية،
الأسماء المهموسة،
القبلات المضمخة بطعم الملح،
النشيج المكتوم،
الأعين التي التقت للمرة الأولى منذ اندلاع النار
ها هنا ولدت من جديد،
بعثت،
حية،
وكان شعري الراية التي
خفقت فوق
العذاب الجم،
التي جلبتهم من السفينة
ملوحين، ومرحبين
تراث،
المكتشفين،
التعساء،
للأم النائية
التي وهبتني الدم والصوت.

آه، يا مدينتي الضائعة!

أحببت مدريد، والآن
ما عاد بمقدوري رؤيتها من جديد، ليس بعد، يقين
مرير وإن كان مترعاً باليأس ينبع
من موتي في الوقت،
الذي لقي فيه أصدقائي حتفهم، كأنما
شطر روحي مضى إلى القبر،
ورقد هناك وسط السهول الجافة،
سجوناً وسجناء،
وزمناً سالفاً حينما لم تكن الزهور
مضرجة بالدماء والقمر ملطخاً.
أحببت مدريد، ضواحيها،
وشوارعها المنحدرة نحو «كاسيل»،
مثلما نهيرات من العيون الحور
كان مغيب ـ
شوارع من حبال وبراميل
خصل من الحَلْفاء، كالجدائل،
ضلوع براميل منها،

ذات يوم،
سيهرب.
النبيذ إلى مملكته خشنة الصوت،
شوارع من فحم،
أفنية مسيجة بالخشب،
شوارع تعج بمشارب تغص
بفيض من نبيذ «فالدبنياس» المتوهج،
وشوارع خاوية، جافة،
يحفها صمت مطبق، مثلما الطوب اللبن،
ودبيب أقدامي الضالة جيئة وذهاباً،
دونما دليل، بغير تطلع، ودونما عثور، متقلباً
في الحياة التي تعاش،
صامتاً، مع
تلك البقع، متقداً،
مع الحجارة
وأخيراً يصمت، صرير نافذة، أنشودة
بئر، صوت
قهقهة هائلة،
هشمت
زجاج
الغسق، بل
وأدنى،
في زور

المدينة المسائية،
جياد متربة
عربات ذات عجلات حمراء،
وعبق
المخابز التي توصد أبوابها،
تاج الليل،
فيما أيمم شارداً نحو
«كواثرو كامينوس»،
«كالي ولنجتونيا»،
رقم ٣،
حيث ينتظر بعينين، مثلما شرارتين زرقاوين،
ووجه كبدر وردي
وابتسامة لم يقدر لي قط العودة لرؤيتها،
مقدمي.
غادرته هناك؛ ليحيا مع أصدقائه الموتى.

ربما تغيرت منذ ذلك العهد

قدمت إلى بلادي، بمقلتين مختلفتين،
أنبتتهما الحرب
تحت عيني،
مقلتان أخريان، اتقدتا
في المحرقة،
وقد غطاهما نثار
من دموعي ودم الآخرين،
وشرعت أحدق عساي أوغل،
في رؤية الأعماق المضطربة
للعلاقات بين البشر. والحقيقة،
التي لم تُقبل طليقة من السماء قبلاً،
مثلما نجمة
تحولت إلى جرس.
أدركت أنها تدعوني.
وأن رجالاً آخرين يلبون
نداءها. فجأة
تركت رايات أميركا

الصفراء، الزرقاء، الفضية.
ذات الشمس والنجم والقرنفل والذهب،
في ناظريّ
أراض عارية،
فقراء قدموا من الحقول والطرق،
فلاحين خائفين، هنوداً موتى،
على ظهور الخيل، يحدقون بلا أعين،
ثم فم المناجم الرهيب،
المتخم بالفحم، النحاس، والبشر الهالكين،
لكنْ ذلك لم يكنِ كل
ما في الجمهوريات:
كان ثمة شيء آخر ضار، لمّا يكتمل تشكله.
رجل على صهوة جواد، صلف بارد،
وكل أوسمته
ملطخة بالدم الشهيد.
أو السادة النجب، في النادي،
على مقاعدهم الهزازة الثرثارة، على أجنحة
الحياة الرخية،
فيما الملاك البائس المجهول،
المسكين، مرقع الثياب،
يسير من حجر إلى حجر، ويواصل المسير،
عاري القدمين، بقلة من الزاد،
لا يعرف معها أحد كيف واصل الحياة.

أهلـــي

قلت: «أيها الأمس، يا للدم!
أقبل وانظر الدم الذي سفكته الحرب!»
لكن الأمر كان مختلفاً هنا.
لا صفير للطلقات.
لم أسمع خلال الليل،
نهراً من الجنود
يمضون،
هادرين،
نحو حتفهم.
ها هنا، اختلف الأمر، في الجبال،
شيء رمادي سلب الحياة،
دخان، غبار إصّاعد من المناجم أو الاسمنت،
جيش غامض،
يضرب في الأرض مجهداً،
ذات نهار، دونما رايات.
ورأيت المسكن الذي يتكون فيه جنوده
ركاماً،

يحيطهم ركام من خشب،
طين جاف، ألواح صفيح صدئة،
وقلت: «لا أملك لهذا قبولاً».
قلت: «أقبلت حتى هذا المدى وحيداً»
عليك أن ترى هذه الأعوام، من الآن فصاعداً.
ربما تغير جلد بلاد،
وأصبح الحب ممكناً في العيون.
على المرء، بجلاء، أن يعطي، لا بديل.
أطل السحر، ومن أقصى
أطراف الخشونة إلى أدناها،
توهج اللهب الحي،
الذي رفعته عالياً في يديّ.

فــي المنــاجــم الســامقــة

من المناجم السامقة انتخبتُ .
أقبلت إلى مجلس الشيوخ ، احتللتُ مقعدي ، أديتُ اليمين ،
مع الشيوخ الجهابذة .
«إني أقسم» ـ لكنه كان خاوياً ذلك القسم ،
الذي أدّاه الكثيرون . لم يقسموا
بدمهم ، وإنما برباط أعناقهم .
أقسموا بأصواتهم ، باللسان ، بالشفاه ،
وبالأسنان ، لكن القسم
ما تجاوز هذا .

جلبتُ الرمال معي ،
السهل الرمادي ، القمر
المترامي ، المعادي بتلك القفار ،
ليل عامل المناجم ،
ظمأ النهار الوحشي ،
والملعقة النحاسية ،
البائسة ، التي يحتسون بها حساءهم التعس .
حملتُ إلى هناك الصمت ،

الدم الدافق من ذلك القفر الشُمالي،
الذي يعجّ بعمال المناجم المطحونين،
الذي يبتسمون لي لا يزالون،
مفترين عن أسنان مرحة،
وباسم الرجال ورمالهم أقسمتُ،
باسم الجوع والمعادن الصلدة،
باسم العمل والفقر.

حينما قلت: «إني أقسم»
لم أقسم باسم التخلي والمساومة،
ولا لأجمع ألقاب التشريف والأوسمة.
جئتُ لأضع يدي المحترقة،
على الكتاب الجاف،
لأشعل فيه النار، وأطعمها إياه،
مع العهد القفر لتلك الرمال.
أحياناً كانت سِنة من النوم تأخذني،
فيما كنت أصغي،
للدفق العصي الاختراق،
من المصالح وأولئك الذين تنتمي إليهم،
ذلك أنه في النهاية لم يكن بعضهم بشراً،
كانوا صفراً أو سبعة أو خمسة وعشرين،
كانوا يجسدون
أرقام مبالغ

الرشاوي.
منحهم السكر المنصة
أو السعر الحالي للبقول
كان أحدهم شيخ الأسمنت،
وآخر رفع سعر الفحم،
وأحرز ثالث الناس، الجلود،
الكهرباء، الملح، القطارات،
السيارات، صفقات السلاح.
دفع خشب الجنوب ثم الأصوات،
ورأيت غطريفاً محنطاً،
كان مالك خط للملاحة البحرية،
لم يكن يدري أبداً متى، على وجه الدقة،
ينبغي أن يقول نعم، أو يهتف أن لا.
كان يشبه غوّاصاً عتيقاً، متجمداً،
مكث عن طريق الخطأ
تحت ملح المدّ،
وقدر لذلك الرجل، المجرد من الرجولة.
الذي يتدفق الماء الملح في عروقه،
من خلال مصادفة غريبة، أن يحسم
أمر قانون النير، الذي أعلن
ضد البؤساء،
قاضياً
بالجوع والبؤس اليومي،

في كل مادة من مواده،
مقرأً الهلاك فحسب،
ومتخماً جيب
تاجر العبيد.
وتحت الضوء المترع بالعداء،
كانوا
أكثر الناس ملاءمة،
التجار الشاحبين
بالجمهورية البائسة،
أجيد كي ثيابهم،
ولاح عليهم الوقار،
تجمعوا،
في زريبتهم الأنيقة مصقولة الخشب،
يقدمون الابتسامات أحدهم للآخر،
محتفظين في جيوبهم
ببذرة النبتة، التي لا تكف عن النمو،
النقود.
كنت أوثر السهل الأعلى،
أو كهف الحجر والمتفجرات،
حيث يحيا الناس الذين بعثوا بي هناك ـ
الرفاق الملتحون،
النسوة اللاتي لا يتاح لهن وقت لتمشيط شعورهن،
الرجال الذين وهبوا أنفسهم

لمهنة التعدين .
سرعان ما اتفقوا جميعاً،
مثلما المسامير،
في دار عتيقة،
متهاوية،
إنهارت ألواح الخشب،
لكنهم كانوا أعمدة ذلك البناء الهالك،
كانوا جميعاً على استعداد
لأن يرسلوا للسجن، العذاب،
المعتقلات،
المنفى، الهلاك،
أولئك الذين يراودهم أي أمل،
وأدركت أنهم يضارون
يلقى بهم للهلاك عمداً،
أولئك البعيدون
أصدقائي
القادمون من الصحراء، لكن شيوخي
قد أعدوا لهم
مأوى «بيساجوا»، الساحل الضاري،
العزلة، الألم، العجز،
مقراً لهم، وليس فحسب
العرق، الخطر،
الجوع، البرد، البؤس

خبزاً يومياً لهم،
أبناء وطني،
وإنما الآن،
ها هنا، في هذا المكان الجديد،
رأيت، وسمعت
السمك الناعس المهينم.
والأخطبوط الوردي الهائل،
متيقناً أن القمصان والساعات
ستوقع الحكم
على التعساء البائسين،
أصدقائي عمال المناجم، البؤساء، الذين حلت ساعاتهم.
أجمعوا
على معاقبة
الجوعى
على رفع السلاح
وإعلاء المشانق،
أن يحكموا على بلادنا
بقرن من الزمان في الرمال.
إختاروا
الشواطىء
الرهيبة،
العمود الفقري الضاري
لجبال الإنديز،

وكل مكان
يغدو الموت فيه سراً
عبر بلّور مكبر
على الخارطة:
رقعة من
الورق الأصفر
قلم من ذهب وهكذا
يخدعون الجغرافيا.
لكن السجن في «بيساجوا»، ذلك المكان
الوحشي، الذي قُدّ من صخر وماء،
ترك ندبة كالعضة
على جبين تشيلي، على صدر حمامتها.

ثـورات

تهاوي الوجهاء،
وقد التفوا في ثياب رسمية،
من طين تآكلته الديدان،
حمل الحراب أناس بلا هوية،
تدافعوا إلى الأسوار،
صلبوا الطاغية على بابه الذهبي،
أو مضوا في قمصان بلا أكمام،
دونما تكلف،
إلى اجتماع صغير،
في المصانع، المكاتب، المناجم.
تلك كانت
السنوات
الانتقالية
سقط «تروجيلو» ذو الأسنان الذهبية.
وفي نيكاراجوا
راح واحد من آل سوموزا مرقشاً
بالرصاص،
ينزف حتى الموت في مستنقعه،

ليفسح الطريق لفأر آخر من آل سوموزا،
لينهض، كموجة برد،
ويقتعد مكان الفأر النافق ذاك،
لكنه لن يبقى طويلاً
الشرف والعار يا للرياح المتضاربة التي عصفت
في تلك الأيام الرهيبة!
من موضع لا يزال خفياً جلبت
تاجاً غامضاً من الغار للشاعر،
وتوّجته.
اجتاز القرى
بطبله الجلدي
ومزماره الحجري.
راح قرويون بأعين شبه مغمضة
تعلموا في الظلام،
وحفظوا الجوع، مثلما نص مقدس،
ينظرون إلى الشاعر، الذي عبر
البراكين والبحار والشعوب والسهول.
والذي كانوا يعرفون هويته.
أظلوه
تحت
خضرة أشجارهم.
كان الشاعر
هناك بقيثارته

وعصاه التي انتزعت من الجبال
من شجرة عطرة،
وكلما أوغل في العناء
سافر في المعرفة،
رحل في الغناء ـ
كان قد اكتشف
العائلة الإنسانية،
أمهاته المفقودات،
وإباءه،
وعدداً لا حصر له
من الأجداد والأطفال.
وهكذا، اعتاد
أن يكون له ألف شقيق،
لذا لم يعان من الوحدة.
فضلاً عن ذلك، فبقيثارته،
وعصاه الغابية
على ضفة
النهر اللامتناهي،
برّد قدميه،
وسط الأحجار.
لم يحدث أو لم يبد أن شيئاً
قد وقع ـ
ربما الماء الذي انساب

متجاوزاً ذاته
راح يشدوا
من رحاب الشفافية.
أحاط به
الدغل المكتسي بلون الحديد.
تلك كانت النقطة الساكنة.
الأكثر زرقة، المركز النقي
للكوكب.
وهناك كان بقيثارته،
وسط الصخور
والماء
المنغم،
ولم يقع شيء
اللهم إلا الصمت العريض،
النبض، القوة
النابعة من رحاب العالم الطبيعي.
غير أنه
كان قدره حب جليل
وشرف غاضب.
خرج من الغابات
والبحار.
ومعه مضت، جلية، مثلما سيف،
نيران أغنيته.

مناجـاة فـي الأمـواج

نعم، لكني ها هنا وحيد.
تصّاعد
موجة،
ربما تقول اسمها، لست أدري،
تغمغم، تتحدث، تحت وقر حملها
عن الحراك والزبد،
وتنسحب. ترى من
بوسعي سؤاله عما قالته لي؟
ترى من في قلب الأمواج
يمكنني الهتاف باسمه؟
وأنتظر.
من جديد، يدنو الصفاء،
الأرقام الهشة،
تعلو في الزبد،
وما دريت بم أدعوها.
هكذا انداحت هامسة،
تسربت إلى فم الرمال،

محا الزمان كل الشفاه .
بصبر ،
الظل و
القبلة البرتقالية
للصيف
مكثت وحيداً ،
عجزت عن الاستجابة لما كان العالم
يقدمه دونما شك لي ،
رحت أصغي
للزخم ينشر ذاته ،
للأعناب الغامضة
من الملح ، والحب الغامض ،
وفي غمار اليوم المنقضي ،
لم تبقى إلاّ شائعة ،
موغلة في البعد كل مرة ،
حتى حوّل كل شيء كان قادراً على أن يكون
ذاته إلى صمت .

جبال تشيلي

يتعين عليّ أن أقول إن الهواء
ينصب شبكة، وإن السحب والثلج،
على أشد قمم الإنديز علواً،
تمكث مثلما سمكة نقية
لا تحير حراكاً، ولا يقهرها أحد.
تحيطني
قلعة
من أشد البراري اقفراراً.
والرياح المقبلة
تصفر في ألف برج،
ومن سلاسل الجبال المجردة من الأسنان
تسّاقط المياه المعدنية،
في خيط سريع الجريان،
كأنها تهرب،
من السماء المهجورة.
تموت كل الكلمات، ويفنى كل شيء،
ويسود الصمت والبرد ويدن

الموت والجُنّاز،
وفي وضح النهار يتدفق نهر متألقاً،
بعيداً عن حشد الصخور،
والثلج الذي صلّبته الوحشة،
يسّاقط، يحمل نفسه بعيداً من فرط الاحتضار،
ويفنى حيث يسقط
من المرتفعات الضارية
حيث كان يغفو،
بالأمس، يلتف
اليوم عاشقاً للريح.

المجهـول

أود لو أسبر أغوار الأمور الكثر التي أجهل،
هكذا أصل،
ضارباً دونما هدف، أطرق الباب ويفتحون، ألج، فأرى
صور الأمس معلقة على الجدران،
غرفة طعام الرجل والمرأة،
مقاعد وثيرة، أسرة، مخازن طعام.
عندئذ فحسب أدرك
أنهم لا يعرفونني هنا.
أخرج، ولا أدري في أي الشوارع أضرب،
ولا كم من الرجال التهم هذا الشارع،
وكم من البؤساء والنسوة الضائعات،
والعمال على اختلاف الحرف،
والأجور التي تدخل السخط إلى القلوب.

الربيع في المدينة

بليَ الدرب، حتى ما عاد إلاّ
شبكة من حفرٍ طينية،
تتجمع فيها دموع المطر،
ثم تقبل الشمس غازية
الأرض اليباب،
المترعة بالثقوب، في المدينة،
التي هربت منها الجياد جميعها.
أخيراً سقط بعض الليمون،
وبقية حمراء من البرتقال،
ربطتها بالأشجار وريش الطيور،
همست في زيف عن البساتين
التي لم تدم طويلاً،
وإن أظهرت أنه في مكان ما
كان الربيع المفضض، الذي لا يعرف الحياء،
يتعرى، وسط براعم البرتقال.

أتراني كنت من ذلك المكان؟ من النسيج
البارد للجدران المجاورة؟

أترى تعين على روحي الاكتفاء بالجعة؟
عن هذا سألوني عندما خرجت،
حينما عدت لذاتي ثانية، عندما دلفت إلى الفراش،
عن هذا سألوني، الجدران،
الطلاء، الذباب، السجاجيد.
التي وطئها مرات عديدة
مقيمون آخرون
يتشابهون وإياي على الناس.
لهم أنفي وحذائي،
والملابس البالية التعسة عينها،
والأظافر الشاحبة المقلمة ذاتها،
وقلب مفتوح مثلما خزانة،
تراكمت فيها الحِزَم،
أقاصيص حب، رحلات، ورمال.
أي أن كل ما يقع، في غمار وجوده،
يمضي، ويمكث بلا رحمة.

يساورني الحزن

ربما اعترضت، صرخت ذواتي المتباينة احتجاجاً.
قالوا إني ربما قلت بأني خائف
إني راحل، إننا راحلون. من هذا الموضع ما جئت.
ما ولدت والمنفى قدري.
وأستميح الجمع عذراً.
أعود لأجد أجنحتي.
دعوني أعد إلى سعادتي،
إلى الظلال الوحشية، الجياد،
إلى عبق الشتاء الأسود في الغابات.
صحت، صحنا، ورغم كل شيء
لم يفتحوا الأبواب،
وبقيت، بقينا،
في رحاب الرعب،
لا نحيا، ولا نفنى، ملاقين حتفنا،
على يد القمع أو السلطة.
لا زلنا بلا جدارة، مطرودين،
من رحاب الكمال والتجذر.

أذكر الشرق

عانيت ضراوة المعبد الذهبي،
مع بشر آخرين من طين.
هنالك جثم، محتجباً،
غارقاً في الذهب، سامقاً إلى الأعالي،
ملتفاً بالضوء حد الاختفاء،

لماذا مارس الحكم في تلك المدينة؟

سهم، جرس، قمع ذهبي،
وضعها الناس صغار الأجسام،
في قلب الحراك،
وسط الشوارع المظلمة،
حيث انخرطوا في البكاء، وراحوا يبصقون،

شوارع تغلي،
شوارع كشموع حريرية الملمس،
في سفينة تتقلب،
والجمع يستحم،
تحت المطر الدافىء،

ذيول الأسماك الخضراء،
طاعون الفاكهة،
كل حلوى الأرض،
مصابيح في النفاية.
لذا أسائل نفسي،
ما الذي تمس إليه حاجة الإنسان؟ الخبز
أم انتصار يلفه الغموض؟

تحت خصلتين من شعر الرب،
على ضرس تمثال بوذا،
إخوتي صغار القامة، شديدو الحياء،
ذوو العيون المنحرفة كالخناجر،
أبناء بورما، ذوو البشرة المكسوة بلون الأرض،
والقلوب التي تشبه البرتقال،
وشأن أهلي البعيدين،
(جنود «تلاكسكالا»
فرسان السهول)
شادوا ركاماً من ذهب،
روما، مقبرة،
بارثينون من الحجر والعسل،
وهناك يعرض الشحاذ نفسه،
منتظراً صوت الرب،
الذي يجثم دوماً في مقر آخر.

على هذا النحو كنت في شوارع
آسيا تلك، شاباً جهماً،
عبثاً يحاول رابطة
تصله بالجموع البائسة،
وذهب صروحهم المشيدة،
وفي غمار فوضى الأقدام،
الدم، الأسواق،
هناك هوى فوق رأسي
كل هذا الغسق الضاري
الأحلام المضطربة، الإرهاق،
وكآبة المستعمرات.
برق، مثلما سيف
المعبد الذهبي في جرح السماء،
لم يتهاو الدم من الأعالي.
وحده الليل هوى،
ظلمة ووحشة.

أقاصيص حب: جوزيا بليس (١)

ماذا فعل الدهر بالحانقة؟
كانت الحرب
تحرق
المدينة المذّهبة،
التي أغرقتها، فما عاد
بوسع تهديداتها المكتوبة،
ولا تجديفاتها الكهربائية أن تنطلق،
لتعثر عليّ من جديد، لتطاردني،
مثلما فعلوا من قبل، في ذلك الموضع النائي،
ساعات عديدة،
حتى أن الزمان والنسيان
طالاها ساعة وراء الأخرى،
حتى غدا بالوسع أخيراً نعتها بالموت،
الموت، اللفظة السيئة، الطين الأسود،
الذي سترقد فيه
جوزيا بليس، ملتفة بحنقها.
كانت تحصي

سنوات غيابي،
تجعيدة فأخرى، فيما هي تلتم
على محياها، جراء الحزن الذي سببته لها،
لأنها كانت تنتظر مقدمي على الجانب الآخر من العالم.
لم آت قطّ، لكنما في الكؤوس
الخاوية،
في غرفة الطعام الهالكة،
ربما بدّد الصمت
وقع خطاي النائية،
وربما حتى وافتها المنية كانت تراني،
كأنما من خلل الماء،
كأني أسبح في كأس
وئيد الحركة،
وما كان بمقدورها الإمساك بي،
فتضل عني،
كل يوم في البحيرة الشاحبة،
التي تحجرت عليها نظرتها.
حتى أغمضت عينيها أخيراً ـ
متى وقع هذا؟
حتى جللها الزمان والموت ـ
متى وقع هذا؟
حتى انداح بها العشق والموت ـ
أيـن؟

حتى ما عاد بوسعها هي التي أحبتني في الحنق،
في الدم، في الانتقام،
في الياسمين،
أن تمضي في محادثة نفسها،
محدّقة في بحيرة غيابي.

الآن، ربما
ترقد قلقة،
في مقبرة رانجون الهائلة،
أو ربما على ضفاف
نهر «إراوادي» أحرقوا جثمانها،
طوال الأصيل، فيما
النهر يغمغم
بأمور ربما كان يمكن أن أحدثها بها، وملء العين دموع.

أقاصيص حب: جوزيا بليس (٢)

نعم، كان عبثاً، في تلك الأيام،
أن تنبت وردة حقاً، ما من شيء
كان ينمو،
إلا لسان قان
من نار هوى،
من الصيف المدفون،
الشمس العتيقة ذاتها

لذت بالهرب من المهجورة.
هربتُ مثلما بحار أريب،
مضيتُ صعداً قرب خليج البنغال،
إلى الدور المتربة على الشاطىء
وغاص قلبي،
في الظل.
لكن البحر العنيد لم يكن كافياً.
لحقت بي جوزيا بليس مازجة
حبي باستشهادها.
يالرماح الأمس! يا لسيوف الماضي!

قلت إني مذنب،
قلتها للحباحب.
ولفني الليل.
أردت أن أقول إني أيضاً
تعذبت
ليس ذلك كافياً
فمن يجرح يُجرح. حتى يلقى حتفه.

الآن، انقضى لك، سُطر على الرمال،
في انتشار الظل.

ليس هذا صحيحاً! ليس هذا صحيحاً!
كان ذلك أيضاً زمان
الآلهة،
المرزبانية، القمر
الحديد، الندى،
الآلهة الوحشية، التي أفعم جنونها
العام،
وكأنما بالدخان،
قباب المملكة،
نعم،
كان هناك هواء،
هواء ثقيل، بريق
العري،

آه،
يا لعرف الناردين الذي أثقل
ذهني بوقر عبقه!
كأنما ألقى بي في جب،
لم أخرج منه لأرفع عقيرتي بالنداء،
وإني لأغوص إلى القرار غارقاً.

آه، يا لتلك الجدران
التي بللتها
الرطوبة والحرارة، وتركتها
مثلما جلد السحالي الخشن!
نعم،
نعم،
كل ذلك وما يتجاوزه: الجمع
الذي فرقه
غطاء رأس امرأة، على يد
هاتيك النسوة الفيروزيات، الحاسات
اللاتي انتثرن، على النيران
وسط الأثواب الزعفرانية.

في عهود أخرى، كان المطر
يهمي على المملكة الهادئة،
وئيداً، مثلما قناديل البحر،
على الأطفال، الأسواق، والمعابد،

كان مطراً مختلفاً ـ
سماء ساكنة،
مثلما زجاج معتم،
ثبت بالمسامير في نافذة ميتة ـ
وانتظرنا،
أغنياء وفقراء،
آلهة،
كهنة،
وعرافين،
صيادي عظايا،
نموراً، أقبلت منحدرة،
من آسام
غرثى ومتقدة
الدم،
جميعاً
انتظرنا.
تفصدت السماء المشرقية عرقاً،
أوصدت الأرض
وما حدث شيء.
ربما في قرار
هذه الآلهة،
كان الزمان
يختمر ويولد،

يوضع مخطط القدر،
تطل الكواكب إلى النور،
لكن الصمت لم يلملم إلا
ريشاً رطباً،
وتفصداً أزرق وئيداً،
وانخرط العالم في البكاء، من فرط الانتظار،
حتى أيقظ قذف الرعد
المطر،
المطر الحقيقي،
وعندئذ سفح الماء ثيابه،
واستحال،
فوق الأرض،
رقصة من زجاج، أقداماً من سماء،
مهرجاناً للريح،
همى المطر، مثلما تمطر الآلهة،
مثلما يتهاوى المحيط،
شأن طبل حرب يُقرع.
همت المونسون الخضراء،
بعيون وأياد،
بأغوار
بشلالات وليدة،
تفتحت فوق

نخيل الجوز والقباب،
في وجهك، جلدك، ذاكرتك
همت السماء، كأنما المطر،
يغادر قفصاً للمرة الأولى،
وطرق أبواب
العالم، إفتح! إفتح!
وما فتح
العالم فحسب
وإنما القضاء،
الأحجية
الحقيقة.
تحول كل شيء إلى
طحين أزرق،
وامتداد جديب،
في رحاب العزلة الغليظة.
هكذا كان العالم، ووحيدة ظلت.
يا للأمس! يا للأمس!
عيناك المقاتلتان،
قدماك العاريتان
تطاردان شعاع الشمس،
وحنقك المشهر كالخنجر، وقبلتك القاسية،
مثلما ثمار الوهاد،
بالأمس، بالأمس،

عاشت
في قرقعة النيران،
أيتها الغاضبة مني،
يا حمامة المحرقة!
اليوم، ودونما حتى غيابي بغير قبر
ربما وقد هجرك الموت،
هجرك حبي، هناك، هناك،
حيث رياح المونسون، وطبولها،
يكتم دويها، وفخذاك الهالكان،
ما عادا قادرين على المجيء للبحث عني.

البحر

تمس حاجتي للبحر؛ لأنه يعلمني.
ولست أدري ما إذا كنت قد تعلمت الموسيقى أو الوعي،
ما إذا كان موجة واحدة أم أنه حضوره الرحب،
أو صوته الهادر أم وجوده البراق،
إيماءة للأسماك والسفن.
الحق أني، إلى أن دلفت لرحاب النوم.
على نحو ساحر، انتقلت في
جامعة الأمواج
ليس الأمر قواقع تُسحق
كأنما كوكب مرتعش
تندّ عنه إمارات هلاكه التدريجي،
لا، إني لأعيد بناء صرح النهار من نثار،
وهوابط الكهوف في شظية ملحية،
والإله العظيم من ملء ملعقة.
أستظهر ما علمني إياه قبلاً، إنه هواء
ريح لا تسكن، ماء، ورمل.

يبدو أن ليس بالأمر الجلل لشاب
أن يأتي إلى هنا ليحيا مع نيرانه،
وزغم ذلك فإن النبض الذي ارتفع،
وسقط في هوته،
صرير البرد الأزرق،
زوال النجم هوناً،
انفضاض الموجة الرقيق،
تبدد الجليد في زبده،
القوة الهادئة المنطلقة هناك، يقيناً
مثلما مزار حجري في الأعماق،
استقر هذا كله في موضع عالمي، الذي تنامى فيه
حزن شرس، نسيان متراكم،
انحزت إلى الحركة النقية.

أرق

أُسائل نفسي، في قلب الليل،
ما الذي سيحدث لتشيلي؟
إلام سيصير أمر بلادي السمراء البائسة التعسة؟

من فرط عشق هذه السفينة الناحلة، الطويلة،
هذه الحجارة، هذه المزارع الصغيرة،
وردة الساحل الندية أبداً،
التي تحيا وسط الزبد،
توحدت مع بلادي.
التقيتُ كل أبنائها،
وتتابعتُ في أعماقي المواسم،
منتحبة أو مبرعمة.

أشعر الآن،
وقد انتهى لتوه عام الشك الميت،
الآن، والأخطاء التي أدمتنا جميعاً
انقضت، وبدأنا نضع، من جديد،

خطة حياة أفضل، أكثر عدلاً،
إن الخطر يطل مجدداً،
وتعلو الأسوار سخيمة تنهض.

وداعاً للثلج

كان «تشاريتا» هناك،
بلحيته الشهباء وسترته البيضاء،
غارقاً في ذكرياته.
انخرطت زوجته في البكاء،
إثر نبأ أليم:
لقي أخوها حتفه في لاوس،
بعيداً، ولم على البعد؟
ما الذي فقده في الأدغال؟
لكن «إيسلا نيجرا»
نهضتْ،
مثلما برج كلسي،
حجراً، وطيوراً،
بالزرقة الرائعة
لسماء
مكينة، قوية الأركان،
مكاناً ثابتاً،
مطلياً من جديد دوماً

بالنوارس ذاتها،
الجسور، الغرثى.
تضج
«الإيسلا»
باليعاسيب، الكروم، الرجال.
والنساء،
منفردة على صخرتها،
جلية في عزلتها المحدودة،
على أحد الجانبين أثرياء مسرفون حد الجنون،
وعلى الآخر فقراء حريصون،
وثمة مجال للجميع.
النور الوافر لا يدع مجالاً لإنكاره.
هاك قدحاً من النور،
شهد يوم واحد بأسره،
الليل كله بنيرانه الزرقاء،
فلنبق في سلام،
ولنتجنب الشجار مع «لوكاس»
ومع «بييرو»!
تقول «الإيسلا»:
رغيف نور لكل فرد،
وها هي هناك بنورها الوفير،
لا ينضب لها عطاء، مثلما شجرة كرز،
انقضى عقد من الزمان، الآن، وأنا أرقى الدرج.

وهي عال حالها،
ناصعة مثل الكلس، قفير من نبات رعي الحمام،
بين علامة الطباشير والجرف،
الأغصان الرقيقة، الرهيفة،
العبق المنداح
لنباتاتها المنتشرة.
من الأعالي همين صمت
البحر كالخاتم،
خاتم أزرق،
و«الإيسلا».
لم تدمرها الحروب ولا الأثرياء.
فما غادرها الفقراء.
لم يهجر الدخان ولا العبق
ذلك المكان.
راحت اليعاسيب تطنُّ،
والخمر، الصافية في لون الماء،
دامت في الزجاجات
ناراً شفيفة،
وراحت النباتات
تطنُّ.
كنت أعود من البعيد؛
لأرحل،
وعرفت أنه ضرب من الموت،

أن يرحل المرء، فيما يبقى كل شيء،
إنه احتضار فيما «الإيسلا».
تزدهر
أن يمضيَ المرء وكل شيء على حاله
الياقوتيات،
السفينة المحيطة،
بالفرحة الشاحبة
للرمل،
مثلما بجعة مخلصة،
عقد من الزمان كان يمكن أن يكون قروناً،
قرون دون مس أو شم أو نظر
غياب، ظل، برد،
وكل شيء هناك يزدهر،
مترعاً بالأصوات،
دائماً
صرح من الماء،
دوماً
قبلة،
أبداً
برتقالة،
دائماً.

بارثينون

أرقى الصخور الذاوية،
في قيظ يونيو،
فيطل الأفق، الزيتون، الألومنيوم،
التلال،
مثلما الجنادب الجافة.
لنترك وراءنا الملك
والملكة الزائفة،
فلنغادر،
الموجة المهددة
والأشياء الدارعة
وتيه «إلينوي»،
سحالي «أيوا»،
وكلاب حراسة «لويزيانا»،
لنغادر
الفاكهة الرمادية
للحديد النازف دماً
القلعة

الضاربة المريرة.
لنرق هامة المجد،
الصرح،
المستطيل النقي،
الذي لا يزال يواصل الحياة،
وقد أبقت عليه دونما شك
اليعاسيب.
له عمادة الدنيا
كاهن
الضياء،
الجد الأزرق
لعلم الهندسة،
الآن أعمدتك
خدّدتها أظافر
آلهة منسية،
لا ترفع السقف العابر،
وإنما ترفعه الزرقة،
الزرقة الهائلة، اللامبالية.
ذلك هو اسم
الخلود:
الزرقة،
زرقة بأجنحة من رماد،
سحب صغيرة،

زرقة أقفرت من ساكنيها ـ
ويا لهذه الأعمدة البارزة!
وضعتْ الألمعيُة القواعدَ،
وحددت النظام،
وشرعت امتدادتها في الفضاء،
أبدعت الخفة والتثليث،
وجعلتها تحلق، مثلما الحمائم.
من قلب العماء الكوني،
القوى المعادية
في الطبيعة
الظلام، الجذور، العشب،
الكهوف، والجبال الرهيبة،
الهوابط الضاربة.
نحتت الأبعاد، مثلما قطعة من الياقوت الأزرق.
وعندئذ استطاع الرجل
أن يحصيَ، يدرك، يسمق بقامته،
يشرع في أن يغدوَ إنساناً،
إصّاعد النحل إلى قرص العسل،
وسقطت العيون على المشكلة،
للتفكير قارته،
حيث الخطو والقياس
يقودهما الخط،
وللأقدام الاستقامة التي ظمئت إليها.

كمن الخلود هناك ليعرف.
كان البحر هناك سراً ممتداً.
والبارثينون السفينة الأولى،
سفينة من نور مقدمتها العراقة،
تبحر عبر المستطيل البحري،
ناثرة الأساطير والشهد.
فاسترد الكون وضاءته.

حينما تخلوا عنه، من جديد،
انتشر الرعب، وعمّ الظلام.
وعاد الإنسان إلى حياة ضارية.

ظلت هناك خاوية،
نقية ومهجورة،
تلك السفينة الرقيقة،
متألقة، ومنسية،
نائية، في إهاب هيكلها،
باردة كأنها ميتة.

لكن ذلك لم يكن صحيحاً، فقد ضجت بالحياة
داراً، سفينة، مقدمة،
لباً للأمر وجوهراً.
لم تكن الهشاشة
تلف الخطوط أو ضراوة جماله؟
لأنه قارع الدهر.

في المطر، في الحرب،
الغضب أو النسيان،
ظلت مسيرته كعهدها.
والدهر لا يوقر
الابتسام.
وقُدِّر لمسيرته أن توجد، أن تدوم.
كان درساً، ذلك الحجر
كان منطقاً، هذا النور الشامخ.

ويعود الإنسان،
الإنسان، دونما آلهته العابرة،
يرجع.
النظام خلود الروح،
والروح تعود،
لتنبض بالحياة في الكيان الذي خلقته.
إني لعلى يقين من
الحجر الساكن
لكني أعرف الريح كذلك.
ما النظام إلا مخلوق،
ينمو فيعود الصرح إلى الحياة،
تندلع النار، في حين أو آخر.
لكن الحب يعود إلى مقره.

أمــواج المــد

انتشرتُ، وقد عمني البلل في الأمواج،
مثلما السبيدج في البحر المضيء،
وفي أعماقي، دوّى الملح الضاري،
وصاغ هيكلي العظمي،
كيف أجلو السر، فدونما
الإيقاع الأزرق المرير للتنفس،
كررت الأمواج واحدة إثر الأخرى
ما استشعرته، وارتجفت به،
حتى صاغني الملح والرذاذ:
إباء الموجة ورغبتها،
الإيقاع الأخضر، الذي في قراره المكنون
شاد برجاً شفافاً،
حفظ ذلك السر، وفجأة
شعرت أني أضطرم معه،
أن أغنيتي تصّاعد مع الماء.

أنــوار «ســوتتشـــي»

في «سوتشي» طفا النور في القدح،
حتى مال، وانسكب،
لا يستطيع البحر أن يلملم أشعته،
ومن السماء يتدلى سلام شامل،
حتى تطلق الأمواج جيوشها،
مثلما درع البحر،
في صفاء الماء والحجر،
فيما الشمس، الممتدة بلا انتهاء، والملح المتطاول أبداً،
يسمان أحدهما الآخر، كإلهين عاريين.

مكتـوب في «سـوتشـي»

ريح ملحية في رأسي، فوق عينيّ،
مثل أكف باردة،
وآه، من الهواء العاصف تُقْبِلُ
ريح أخرى، بحر آخر، سماء
ساكنة، سماء زرقاء، مختلفة،
وذاتٌ أخرى، تستحضر
من سنواتي الغابرة، من بحر ناء،
نبض الأعاصير،
في موجة تشيلية هامسة،
ارتطام الماء الأخشر والريح الزرقاء،
ما أراه حقاً
لي الماء ولا الريح،
ولا الرمل الملحي المقاتل،
ولا الشمس السامقة في الهواء المتألق،
وإنما عشب بحري أسود، وعيد
تلك الأبراج الهائلة في البحر،
الموجة التي تنداح، وتعلو، بلا انتهاء،

هائلة، قصف البحر العنيف،
وعلى امتداد حافة البحر المقفرة،
أمضي نحو «تولتين»، أو أني بالأحرى مضيت.

كنتُ الملك الشاب،
المتوج على هاتيك القفار الموحشة العظام،
ملكاً مجهولاً، كانت بلاده
الرمال، الغابات، البحر، والريح الهوجاء
ما راودتني الأحلام، أسلمت نفسي
للفراغ، لقبلة
الملح النقية، مفتوح القلب
للطمات الهواء الرطب المرير،
لمطاردتي الدائبة للامتناهي.

ماذا عساي أردت فوق هذا؟ وماذا ترى بمقدورهم منحي،
فيما كل هذا كيان بلا قوام،
وكل كائناته مجبولة من هواء،
والعالم رياح رملية،
آثار أقدام لطمتها
نزوة سماء ضارية
وأسنان البحر الوحشية؟
أي مزيد إذا كانت الدقائق تنشر
قوامها لتصبح أياماً،
والأيام أسابيع، والأعوام

تواصل التدفق حتى هذه اللحظة ،
وعلى نحو يُقَبِّلُ معه البحر الهائج
نائياً في الزمان والمكان ثغري؟

من بحر إلى بحر واصلت
الحياة ملء
قفاري ، محوِّلة وعيي الخاوي
إلى مخزن حنطة
حتى برعم كل شيء فيّ؟
والفراغ ما بين بحرين
عمري بين موجتين نائيتين .
إمتلأ ، مثلما مملكة ،
بالأجراس وضروب العذاب ،
امتلأ بالرايات .
كانت لي مواسم حصادي ودماري
جراحي ومعاركي .

الآن أتصور الريح بين جفنّي .
كما لو كان تعنيفها يتصاعد ،
كما لو كانت تريد أن تطهر بالقوة والبرد
البلاد التي أحملها في أعماقي ،
كما لو كانت الريح الضارية تخترقني
بحراً بها الشفافة ،
وتترك لي فحسب وقر

ماستها النقية،
فترغم ذهني على أن يكون
نابضاً ونقياً.
لكن حياتي تعني الرحيل من بحر إلى آخر.

تهب الريح الصافية،
حتى تفقد ملح إبرها،
وستهوي مثلما بطل عار،
لقي حتفه، في وهدة، بين وريقات الشجر.

تمضي بها الساعة بعيدا،
تهب الريح خلف أقدامها،
ومن جديد يحتل الشمس والقمر مدارهما،
وتعود النسور من الأعالي،
وتسكن الدنيا،
فما تنقضي إلاّ في أعماقي.
شفافية الزمان بين موجة وأخرى.

منفـى

بين قلاع من حجر مكدود،
شوارع «براغ» الجميلة،
ابتسامات وأشجار بتولا سيبيرية،
«كابري» نار في البحر، عبق،
إكليل الجبل القوي،
وأخيراً الحب،
حب جوهري لملم حياتي كلها،
في سلام كريم،
وفي غضون هذا
بيد واحدة وصديقتها الأخرى،
شُق ثقب مظلم،
في حجر روحي،
راحت بلادي فيه تتقد،
تناديني، تنتظرني، تنخسني، مستحثة
أن أكون، أبقى، أحتمل،

المنفى مستدير في شكله،
دائرة، حلقة.

وتمضي قدمك تدور، تجتاز أرضاً،
ليست بأرضك.
يوقظك النور، وليس بنورك.
يجيئك الليل، لكن نجومك مفقودة،
تكتشف إخوة، لكنهم ليسوا من دمك.
تبدو كشبح محرج،
تكف عن حب أولئك الذين بك تيموا،
ويظل غريباً بالنسبة لك أنك تفتقد
شوك بلادك الضاري،
عجز شعبك الصارخ،
والقضايا المريرة التي تنتظرك،
التي ستزمجر صارخة بك على الأعتاب،

لكني حتماً، في فؤادي،
تذكرت كل إيماءة ضائعة،
كما لو كانت أعذب شهد
تجمع في شجرة بلادي،
وتوقعت من كل عصفور
الأنشودة المغرقة في البعد،
كالتي أيقظتني، منذ الطفولة فصاعداً،
في نور الفجر الرطب.
بدت الأفضل في ناظري أرض
بلادي الفقيرة، فوهة البركان، الرمل

الوجه المعدني للصحراء ـ
أفضل من الفرح المترع بالنور الذي حيوني به،
أحسست بالضياع والوحدة في البستان.
كنت عدواً ساذجاً للتماثيل،
من أي قرون عديدة أقبلت إليها،
وسط النحل الفضي والتناسق.

يا للمنفى! نأي
يزداد غلظة.
تتنفس الهواء عبر جرح.
التزام ضروري أن تحيا؛
لذا فإن روحاً بلا جذور تمثل الظلم.
إنها ترفض الحسن، الذي تُمنح إياه.
تبحث عن بلادها التعسة.
وهناك، فحسب، تعرف الاستشهاد أو السكينة.

صياد الجذور

الصياد في الغابة

إلى غابتي هذه أمضي، مع جذوري،
بعطائي : من أين
جئت؟ تسأل
وريقة خضراء، عريضة، مثلما خارطة.
فما أحير رداً. وثمة
تكلل الرطوبة الأرض،
فيلتصق حذائي، يسعى دائباً،
يطرق لعلها تفتح،
لكن الأرض تلتف بالصمت.

ستظل صامتة، حتى أشرع في أن أكون
مادة ميتة وحية، نباتاً متسلقاً،
جذعاً أعمى لشجرة صبار،
أو قدحاً مرتجفاً.
الأرض صامتة كيلا تكشف
أسماءها المتباينة، أو لغتها مترامية الأطراف.
تصمت؛ لأنها عاكفة على العمل،
تتلقى، تلد

وأياً كان ما يذهب إلى رحاب الموت، فإنها تلملمه،
مثلما كائن عتيق شقّه السغب.
كل شيء يتحلل فيها
حتى الظل،
الوميض الملتمع،
العظام الهضمية،
الماء، الرماد،
ويقبل كل شيء في غمار الندى،
في التساقط المعتم
بالأدغال.
تتحلل الشمس ذاتها
والذهب المكسور،
الذي تسفحه،
يتهاوى في جوال الغابة، وسرعان
ما يكون قد تحول إلى مزيج، قد انقلب إلى طحين،
وامتداده البرّاق
علاه الصدأ. مثلما درع مطروح جانباً.

أقبلت أبحث عن جذوري،
الجذور التي اكتشفت
طعام الغابة المعدني،
تلك المادة الوحشية،
الزنك الكئيب،

النحاس النسام.
كان على ذلك الجذر أن يمد بالغذاء دمي.
التفّ في الأعماق
الجزء الآخر الثقيل
من الصمت،
عميقاً، مثلما أثر إحد الزواحف.
يواصل الزحف ملتهماً،
يبلغ الماء، يتجرعه،
وعالياً، عبر الشجرة،
يمضي الأمر السري.
مظلم هو العمل
الذي يجعل النجوم خضراء.

بعيـداً، نائيـاً

أحب إنشاد شعري في الريف،
رحبة هي الأرض، والإيناع
ينبض، الحياة ذاتها
تبدّل تجلياتها الكثر.
من نحلة إلى لقاح، إلى غصن،
إلى قفير، إلى طنين، إلى ثمرة،
وكل شيء هناك غارق في الأسرار،
حتى ليبدو، فيما تلتقط أنفاسك بين وريقات الشجر،
أن معك ينمو
اقتصاد الصمت.

كان ذلك بعيداً عن موطني،
الطبيعة هناك، الليل ذاته
كان يسير بخطى مختلفة،
لطخها الدم، وأنارها الفوسفور.

من أين أقبل نهر «إروادي»
مع جذوره؟

من البعيد، حيث تجثم النمور.

هناك في الظل الذي تآكلته الديدان،
كان الريش ناراً،
في بريق الأجنحة،
وحلقت الخضرة، فما استلقت
دفينة، في انبجاسات النار.

شاهدت البرق المندلع،
من الفهد، على الدرب،
ولا يزال بمقدوري أن أرى أطراف
دخان ضائع ترقِّش جلده الذهبي،
لزوجة مفاجئة، وهجوم
يشنه ذلك الغضب المرصع بالنجوم.

والفيلة التي سارت
على دربي في البقاع اليباب،
الجذوع الرمادية العتيقة،
السراويل التي أبلاها الزمان،
آه، يا للضواري التي لوّنها الضباب
فحوصرت في سجن
الظلام الصامت
فيما الأشياء تدنو وتهرب،
طبول، خوف، بندقية، أو نار!

إلى أن يجّروا، عبر وريقات الشجر،
الفيل المغدور،
في بهائه الملكي الحائر.

من رحاب هذه الذكريات، أسترجع
الدغل الشاسع في الليل،
وقلبه الهائل، المقرقع.

كان الأمر يشبه الحياة في داخل
رحم الأرض ـ
صفير حاد، ارتطام
شيء معتم يتهاوى،
وخداع وريقات الأشجار،
في انتظار اقتلاع الريح لها،
والحشرات الزاحفة،
اليرقات المنطلقة دائبة النمو،
ضروب الكفاح تُبتلع،
والتعايش الليلي
بين الحيوات والمصارع
آه، لنفسي أدخر ما عشته،
هذا هو وقر ذلك العطر،
الذي لا يزال يتلمس
نبض العزلة،
وجيب ذلك النمو الكثيف!

الجبـل الشـقيـق

ما قال القسُ إلا : «الماء الشقيق»،
«النار الشقيقة»،
و«العصفور الشقيق»،
وما أتى على ذكر الجبال.
لكنما كان عليه أن يذكرها؛ لأن الجبل
هو الماء، النار، والعصفور
كم يكون طيباً أن يقول:
«الجبل الشقيق»!

لك آيات شكري، أيها الشقيق الهائل؛
لوجودك،
لهذه الشظية التي اخترقت
قلبك الحجري، مثلما سيف،
وأوغلت،
كل أعشابك تقضم،
فهي غرثى،
وصخورك الصامتة، الهائلة
حراس نيران فانية،

لم تنل كفايتها،
عالياً،
ليست السماء الخضراء
لا،
إنه البركان ينتظر
دمر كل شيء، وأعاد الكَرَة،
تهاوى، مكشراً عن أنيابه القانية،
راعداً، عبر غمغماته السوداء جميعها،
وعندئذ،
تدافع المَنِّي المشتعل،
فاستقبلت
الممرات
والأرض
الكتز الكثيف الوئيد،
النبيذ الكبريتي،
نبيذ النار، الموت والحياة،
وتحجر الحراك بكله،
الدخان وحده
انبعث من غمار الهياج.

بعد أن نمسُّ كل حجر،
نقول:
هذا برتقالي.

هيذا يرّقطه الحديد.
هذا في لون قوس قُزح.
هذا مغناطيسي.
هذا تعلوه تجعدات.
هذا في لون يمامة.
هذا له عيون خضراء.

فهكذا هي الأحجار،
الأحجار التي هَوَتْ من الأعالي.
كانت ظامئة، وها هي تضطجع ها هنا،
في انتظار الثلوج.
هذا الحجر سكنته الثقوب،
منذ الميلاد.
هذه الجبال الملتحية
ولدت على هذا النحو.
هذه الجدران الرأسية،
النحاسية،
هذه الجراح القانية
على جبين الانديز،
والماء الذي انبثق من سجنه،
اندفعت تنشد أغنية ومضت في طرقها
العشب،
الذي نما في الأعالي،

متصلباً كحراب قاهرة،
كأشواك فضية،
اكتسب الآن المزيد
من البيضا والخضرة.
لا أشجار، لا ظلال، كل شيء
معرض للنور كالملح،
يندفع نحو الوجود بضربة واحدة،
إنها بلادي، متجردة، عارية،
حراك النار،
الحجر، الماء،
الريح،
التي نسقت الخلق،
وها هنا نشعر أخيراً بأنّا عراة.
وصلنا أخيراً، دون أن نلقى حتفنا،
إلى الموضع الذي يولد فيه الهواء،
أخيراً عرفنا الأرض،
وتلمسناها في بداياتها
لكل هذه الأشياء الصلدة.
وللجليد، تلك المادة الهشة،
أرفع لك آيات شكري، أيها الجبل الشقيق!

النهر المولود في الجبال

لا يعرف النهر أنه يُدعى نهراً.
ها هنا ولد، تعاركه الصخور.
هكذا، في غمار
حراكه الأول،
يتعلم موسيقاه، ويخلق زبده.
لا يعدو النهر أن يكون خيطاً رفيعاً
ولد من الثلج،
وسط عالم يلفه،
من صخرة خضراء وأرض سبخة،
التماعة بائسة، ضائعة،
من برق،
بدأ ينحت
بشرارته
صخر الكواكب،
لكنه ها هنا
يبدو
بالغ الرهافة،

ومعتماً،
كأنما ليس بمقدوره
أن يواصل الحياة بعد سقوطه،
باحثاً عن قدره في كبد،
وتدور الذروة،
تلطم خاصرة الجبل المتأبية،
كمهماز، فتنأى يعاسيبه،
نحو حرية السهل.
تُصلِّب النباتات في الحجر
رماحها ضده،
والأرض المعادية تلويه،
تخلع عليه شكل سهم أو حدوة،
تضيّقه حد الاختفاء،
لكنه يقاوم، ويمضي،
بالغ الضآلة،
عابراً العتبة الصدئة،
لليل البركاني،
حافراً، متهافتاً،
ناهضاً، صلداً، مكتملاً، كأنه سيف،
متحولاً إلى نجمة في مواجهة المرو،
أشد تؤدة، منفتحاً على الجدة،
غدا نهراً، أخيراً، متدفقاً، وبالغ الوفرة.

الملـك الشريـر

تنخرط الأدغال العتيقة في البكاء،
حتى لتغدو، الأرض مستنقعاً.
هي أمُ النَمِرِ والخنفساء السوداء،
وهي أيضاً أمُ الربِ الغافي.
والرب الغافي
لا يغفو من إعياء،
وإنما لأن قدميه حجريتان.
بكل وريقاته يبكي.
بكل جفونه السوداء.
حين يقبل النمر ليرتوي،
يتألق الدم على خطمه،
وتغطي الدموع ظهره.
تقبل الإيجوانا إلى رحاب البكاء،
مثلما سفينة منزلقة،
وبالقطرات التي تهمي
تضاعف تألقاتها الإرجوانية.
وعصفور في تحليقه، إرجوانياً، بنفسجياً، أصفر،

قلقل ما خلفته السماء،
معلقاً على الأغصان.
آه، يا لهذا الذي التهمته الأدغال!
أشجارها، أحلام
الجذور والمتعرشات،
ما خلفته الحمائم،
عقب قتلها،
الجلود التي بدلتها الصلال،
أبراج الخضرة البرية،
درقات السلاحف المعقوفة،
تلتهم الأدغال كل شيء.
الدقائق التي وئيدة
استحالت قروناً،
غدت تراب فروع عديمة الجدوى،
أياماً محترقة،
ليال سحماء، لا ينيرها
إلا توقد عيون الفهود ـ
التهمتها
الأدغال
جميعها.
الموت،
الماء،
الشمس،

الرعد،
الأشياء التي تلوذ بالهرب،
الحشرات،
التي تحترق وتموت، مستهلكة،
في حيواتها الصغيرة الذهبية،
الصيف المتقد وسلته
ذات الفاكهة القانية التي لا حصر لها،
الزمان
بجدائله ـ
كل شيء طعام يهوي،
إلى الفم الأخضر، العتيق،
للإدغال الغرثى.

إلى هناك، أقبل الملك، حاملاً حربته.

ما يُولد معي

للنجيل الذي يولد معي أغني
في هذه اللحظة الحرة، لتخمرات
الجبن، الخل، للإندلاع
السري للإنبثاق الأول للمَنِّي، أغني
لأنشودة الحليب الذي يقبل الآن،
في بياض متصاعد نحو الحلمات،
لخصوبة الإسطبل أغني،
للبقايا الحديثة للبقرات الهائلة،
التي من عبقها تحلق حشود
من الأجنحة الزرقاء، أتحدث
دونما تغيير لما يحدث الآن
للنحلة الطنّانة بشهدها، للأُشنة
في إنباتها الصامت.
مثل طبل أبدي،
يدّوي تدفق التتابع، المسار،
من كائن إلى كائن، وأُولدُ، أُولدُ، أُولدُ،
مع كل ما يولد، أتوحد،

مع النمو، مع امتداد صمت
كل ما يحيطني، صاباً،
ماداً ذاته في الرطوبَة الكثيفة،
في الخيوط، النمور، الهلام.
إلى الخصوبة أنتمي،
وسأنمو، فيما الحيوات تنمو.
أحيا صباي مع ريعان الماء،
وأتئد مع اتئاد الزمن،
أصفو مع صفو الهواء،
وأعتم مع نبيذ الليل،
ولن آوي إلى رحاب السكون، إلا حينما أغدو
معدني البدن، حتى ليحتجب سمعي والنظر،
وما أعود أشارك فيما يولد وينمو.

حينما اخترت الأدغال؛
لأتعلم منها الوجود،
وريقة فأخرى،
واصلت تلقي دروسي،
وتعلمت أن أكون جذراً، صلصالاً عميقاً،
أرضاً بلا صوت، ليلاً شفافاً،
ووراء ذلك، شيئاً فشيئاً، الأدغال كلها.

صيـاد السمـك

بحربته الطويلة، يمضي صياد السمك، متجرداً،
يتعقب السمك المحاصر، في البركة الصخرية،
يلزم هواء البحر والرجل السكون
ورقة في رهافة وردة،
تنتشر من حافة الماء، ووئيدة تعلو،
تعانق الضراوة، في صمت،
واحدة إثر الأخرى تبدو الدقائق
وقد طويت مثلما مروحة،
وقلب الصياد المتجرد
يبدو وقد كف وجيبه في الماء،
ولكن حينما غفلت الصخرة،
ولملمت الموجة قوتها،
وسط ذلك العالم الصامت،
لمع البرق من رحاب الرجل،

فأصاب حياة الحجر الساكنة،
انغرست الحربة في الحجر النقي،
رفرفت السمكة الجريحة، في النور،
راية ضارية رفعها بحر لا يكترث،
فراشة من ملح خضبته الدماء.

موعـد مـع الشتـاء

ـ ١ ـ

انتظرت مقدم هذا الشتاء، مثلما لم ينتظر
إنسان مقدم شتاء قبلي.
للآخرين جميعاً موعد مع الفرح.
كنت الوحيد الذي ينتظرك، أيها الزمن المعتم!
أهذا الشتاء يشبه مواسم الشتاء الأخرى، الأب، الأم،
وصهيل جواد في الطريق؟
هل يشبه هذا الشتاء موسم شتاء في المستقبل،
يحل برداً مطبقاً لا وجود لنا فيه،
والطبيعة لا تدرك أنّا قد رحلنا؟
لا، أقول بأني مالك قفر يحيطه
وشاح هائل من مطر محض،
وها هنا في محيطي وجدني الشتاء، مع الريح،
محلقاً، مثلما عصفور، بين عالمين من ماء
كان كل شيء متأهباً لنحيب السماء.

فأطلقت السماء الرحبة ذات الجفن الواحد
العنان لدموعها، مثلما سيوف جليدية،
وارتجف العالم، مثلما غرفة
خاوية في فندق: السماء المطر، والآماد.

ـ ٢ ـ

في قلب الأشياء سفينة بلا ارتفاع أو انتهاء!
القلب الأزرق للماء المنداح!
بين الهواء والماء يرتعش، ويرقص
أحدهم ساعياً
وراء غذائه الشفاف،
فيما أصل، وأدخل معتمراً قبعتي،
حذائي
أبلته الطرقات الظامئة.
لم يصل أحد
ليشارك في الحفل المنعزل.
وأوشك ألاّ أحس بأني وحدي،
الآن، وفيما استشعر صفاء المكان،
أعلم أن ليّ أغواراً سحيقة، مثلما البئر،
التي أترعتنا خوفاً، حينما كنا أطفالاً،
وإنني إذ تحيطني الشفافية
ونبض الإبر،

أتواصل مع الشتاء،
بقوته القاهرة،
قوة عنصره الغارق في الظلال،
مع انتشار وانتثار
وردته، التي أينعت متأخرة،
إلى أن ينقضي، فجأة، النور،
وتحت سقف
الدار المعتمة.
سأواصل محادثة الأرض،
وإن لم يحرِّ أحد رداً.

ـ ٣ ـ

منذا الذي لا يريد روحاً عنيدة؟
منذا الذي لم يشحذ حدّ روحه؟
في وقت نرى فيه الكراهية، ما إن نفتح عيوننا،
وما إن نتعلم السير، حتى ندهس،
ويحيق بنا المقت، لا لشيء إلا لأنّا أردنا الحب.
ونُلطم، لا لشيء إلا لأنّا عرفنا اللمس،
منذا الذي لم يشرع منّا في تسليح نفسه،
في أن يشحذ نفسه، على نحو ما،
مثلما سكين، ليرد اللطمة؟
يحاول أخو الحساسية أن يكون ساخراً عيّاباً،

ويلتمس الأكثر حساسية سيفه.
وذلك الذي ما رغب إلا في أن يكون موضع حب
لمرة، وبشبح قبلة،
ينقلب بارداً، منطوياً، ولا يلقي نظرة على الفتاة
التي كانت تنتظره، متفتحة، حزينة.
ليس ثمة ما يمكن القيام به. في الشوارع
أقاموا أكشاك تبيع الأقنعة،
ويختبر التاجر على الجميع
الوجوه المغيبية، وجه نمر،
وجوهاً حزينة أو تقية، وجوه أسلاف،
إلى أن يلقى حتفه القمر،
وفي الليل الخاوي من المصابيح نتساوى جميعاً.

ـ ٤ ـ

كان لي وجه فقدته، في الرمال،
وجه ورقي، شاحب، تسكنه الأشواق،
وكان عسيراً على روحي أن تغير جلدها،
حتى وجدت جوهرها الحق،
واستطاعت أن تطالب بهذا الحق الحزين
أن أنتظر مقدم الشتاء وحيداً، دونما رقيب،
أن أنتظر تحت أجنحة
الغاق البحري قاتم اللون،

موجة تأتي، تسترد
إلى زخم العزلة،
أن انتظر ذاتي وأجدها
بلمسة من النور أو الحذر
أو بلا شيء:
ذلك الذي يوشك عقلي ألا يدركه،
جنوني، فؤادي، وشكوكي.

ـ ٥ ـ

الآن غدا الماء غارقاً في القدم،
حتى عاد جديداً، مضى الماء العتيق،
ضارباً عبر الزجاج إلى حياة أخرى،
ولم تبقِ الرمال على الزمن.
يرتدي البحر الجديد قميصاً ناصعاً.
هوية ضاعت في مرآتها،
ومع تبديل مساراتنا نكبر.

ـ ٦ ـ

أيها الشتاء، لا تقبل باحثاً عني! فقد رحلت.
للآتي أنتمي، للحاضر، حينما يهلّ مطر

رهيف، ويطلق سراح
ابره، المترامية بلا انتهاء، زواج
الروح بالأشجار، التي تتهاوى منها القطرات،
رماد البحر، ارتطام
غشاء ذهبي بخضرة الأشجار،
وعيناي، المتأخرتان في القدوم،
مشغولتان، بالأرض، بالأرض وحدها.

ـ ٧ ـ

بالأرض وحدها، الأرض، الريح، الرمل، الماء.
الذي منحني صفاء مطلقاً.

البطـل

استدعتني سيدة القلعة ؛
لأنتحب ، في كل حجرة من حجراتها .
لم أعرفها ،
لكن عشقاً ضارياً لها تملك ناصيتي ،
كأنما تعاستي كلها نبعت
من أنها يوماً أرخت شعرها عليّ ،
فلفّتني في الظلال ،

كان الوقت قد أوغل في المسير .

دلقنا ،
وسط تصاوير الموتى ،
ورنت
خطانا ،
كأنما ،
كنا نهبط ؛
لنطرق
باب

الشرف الضجر، المتاهة العمياء،
وكانت الحقيقة الوحيدة
هي النسيان.
هكذا، عند كل درجة،
كان الصمت سائلاً،
وسيدة القلعة الصلدة
معي، أنا رفيقها مكفهر المحيا،
والتردد يلفنا معاً،
مضينا في رحاب ذلك البرد،
وشعرها الفاحم يوشك أن يعانق السقف،
من الأعالي انساب الذهب الملطخ،
في حجرات التصوير العتيقة،
ليلطخ قدميها العاريتين
كان الصمت الغليظ
للحجرات الرثة
يأخذ بخناقي، وقاومت
باسم ما هو طبيعي،
باسم الطبيعيات المحض،
لكن سيدتي من أعماقها
ألحت عليّ، أن أواصل المسير،
ضارباً في المسير فوق السجاجيد البالية،
منتحباً في الدهاليز.
أطل الزمان، أصيلاً، خاوياً

دونما كلمات بغير عون
جثم كل شيء في الماضي، في حلم غامض.
أو أن الزمان ذاته
ما عاد يتعرفنا،
وسقطنا كلانا، كالأسماك، في شبكته،
أسيرين في القلعة الساكنة.
اتشبث بتلك الساعات،
التي تحاكي الأحجار أو الرماد في كفيّ،
دون نشدان المزيد من الذاكرة.
ولكن إن مضت بي ارتحالاتي الضائعة
إلى قرب جدران القلعة،
لأضعن قناعي على وجهي،
لأسرعن
الخطى، قرب الخندق،
لأبتعدن عن البحيرة الكئيبة،
لأمضين بعيداً، دون أن ألقي نظرة خلفي، فربما
يسّاقط شعرها مجدداً من الشرفة،
فتخترق قلبي
بالأطراف الحادة لدموعها، لتبقيني هناك.
لذا فإني، أنا الصياد الأريب،
أضع على وجهي قناعاً في الغابة.

الغابـة

بحثت عن جذع الشجرة الميت؛
لأدفنه من جديد.
أحسست بأنه في الهواء
كات تلك الكتلة الصلبة المشعرة
تعوق طريق السمافر.
حينما دسسته في الأرض.
ارتجف، مثلما كف،
ومن جديد ربما، في هذه المرة ربما،
عاد ليحيا بين الجذور.

انتمى إلى هذا العِرْق الضائع،
الذي يحيا تحت أجراس العالم.
ما من حاجة بي إلى العيون.
فالظمأ يحدد وطني،
والماء الضرير الذي يرويني.

ثم من الخشب المهترىء،
انتزعتُ الطيبة،

التي أفرزتها العاصفة أو الزمان
حدقت عالياً. أمعنت النظر في الأغوار،
كأنما كل شيء كان ينتظر
ما استطعت أن أستشعر نفسي وحيداً.
كانت الغابة تنتظرني؛
لأنغمس في عملها الضارب تحت الأرض.

وفيما كنت أحضر راحت ترقبني،
الفلقات المورقة،
الخزامى الموصدة التويجات،
النويات المتضامة معاً،
الهندباء البرية الضارية في الآفاق،
وأشجار الزان، التي كلّلتها العاصفة
مضت ترقب العزم الهادىء،
لكفّي المخضبين بالطين،
وهما تحفران حفرة جديدة،
للجذور؛ علّها تبعث من جديد.

الترمس والأمارلس
تشهق سامقة فوق الأرض.
وحتى وريقات وعيون الرولى ترقبني،
والماتيين الأصلية المرتعشة،
بأكاليلها المترعة بالماء الأخضر،
وأعكف في الأدغال حارساً

صمتاً طائشاً،
مثلما ساق متبطل،
لا يملك أدوات أو ناصية لغة.

ما من أحد يعرف أنني أعمل،
مثلما رجل يغرس الجذور،
وسط أشياء غريبة تصدر حفيفاً،
وأخرى تطلق فجأة صفيراً،
عندما يضوع من الكؤوس المميزة،
لعباد الشمس، متجانس الزهر،
عبق سخي، مثلما في حانة،
يلف الغابة التي تحاكي المهْبَل كلها،
فأمضي جيئة وذهاباً، ناثراً
قبضات اللقاح،
في الصمت ضارب الأطناب.

فجأة تهل أغنية

ربما كان صحيحاً أنها أقبلت، من جديد،
مثلما العطر، كالرهبة، شأن غريب
لم يتيقن من الطريق أو الدار.
ربما كان صحيحاً أنها، متأخرة على هذا النحو، وأكثر،
تنفتح الحياة،
تدب في أغوار ما كان
رماداً،
ويرتجف القدح بالنبيذ الجديد،
الذي ينسكب، ويضرم النار فيه، آه، ربما كان ذلك
ما كان عليه قبلاً، درباً دونما علامات،
وتتقد النجوم بجدة
زهور الياسمين بينك وبين الليل -
شيء يعيد البهيمة،
المنبوذة في وحشية،
ويعلن، دون مسترق للسمع،
أنها لن تبلى. تعلو راية
من جديد على الابراج المحترقة،

حب، عشق، فجائياً ومترعاً بالتهديد،
سريعا، مضطربا ـ ذكرى
ترتجف والسفينة الفضية
تقبل،
نحو الرسو الباكر.
الثلج والزبد يعطيان الضفاف،
صرخة داوية تتطلق نحو الجزر،
وعبر الباب الجريح المفضي إلى المحيط،
تهلّ حبيبتي، وفي ركابها الزنابق،
متأهبة للرحيل. أنظر إلى شعرها ـ
امتدادان في لون الفحم النقي،
جناحان سوداوان لسنونو،
إكليلا غار ثقيلان،
ومثلما في حفل خطبة،
تنتظر، والفجر يتوّجها،
في مرفأ الخيال.

أقاصيص حب: داليا (١)

داليا نورٌ يأتلقُ، في النافذة المطلة
على الحق، على شجرة الشهد،
وانقضى الزمان، دون أن أعرف
إذا كان لم يبقَ من أعوامنا الجريحة
إلا ذكاءها المتقد،
عذوبة الفاتنة، التي شاركتني
غرفة آلامي الجرداء.

ذلك أن، على نحو ما أذكر،
من حيث اخترقتني السيوف السبعة،
في بحثها عن الدم،
وانبثق الغياب في فؤادي،
هنالك، يا داليا، أبعد بدر ذهنك
المتألق الأسى عني.

من بلادك الشاسعة،
جئت إليّ،
بفؤاد ثرّ العطاء، انتثرتِ،

مثلما الحنطة الذهبية، تفتحت
على التحولات في الطحين،
وليس ثمة رقة تضاهي تلك التي تنساب،
فيما المطر يهمي في السهوب.
تسقط القطرات وئيدة،
فيتلقفها الفراغ، الروث، والصمت.
والماشية فجائية الاضطراب،
خافضة الرؤوس، في الهواء الرطب تحت
كمان السماء.

مِنْ هناك،
تعرفُتك، فجأة،
مثلما العبير الباقي من وردة،
على معطف حداد، في الشتاء،
كأنما كنتِ دوماً لي،
دون أن تكوني كذلك، مما لا يتجاوز
محض أثر أو ظل حاد
لتويجية أو حسام يتألق.

ثم اندلعت الحرب.
والتقيناها أنت وأنا عند الباب،
عذراء عابرة
راحت تنشد وهي تلقى حتفها،
وبدا الدخان بديعاً،

اثر انفجار
البارود الأزرق على الثلج .
ولكن سرعان
ما تناثرت نوافدنا المهشمة ،
شظايا ،
وسط الكتب ،
بُريكات
من دم سُفح حديثاً ، في الطرقات .
ليست الحرب ابتساماً ،
أغفت الترانيم ،
واهتزت الأرض ،
بالوطء الثقيل لأقدام الجنود ،
نشر الموت نفسه ،
زهرة فأخرى .
لم يرجع حبنا .
كان الأمر مريراً ، في تلك المرة ،
وإن لم تنهمر الدموع .
انهلت الدموع فيما بعد ،
ذلك أن الشرف ذاته انخرط في البكاء ،
ربما في غمار الهزيمة لم ندرِ
أن قبراً هائلاً ينفتح ،
والى وهدته تحررت ،
الأمم والمدن .

ذلك هو عمر ندوبنا
نحفظ الأسى والرماد.
الآن
عبر بوابات مدريد.
تقاطرت قوات المغاربة،
وفرانكو بعربته المحملة بالجماجم،
أصدقاؤنا
موتى، وفي المنافي.

داليا، من بين وريقات كُثر،
من شجرة الحياة،
غاص
وجودك
في النار،
طيبتك،
مثلما الندى،
غاصت
في الريح العاصف.

أقاصيص حب: داليا (٢)

غمرت السكينة الناس، وداعبهم النعاس،
كأنما لفّ الهدوء كلاً منهم، فأوشك أن يغفو.
ربما لم يكن فيك ظل للعناد،
لأنه مكتوب، حيث لم يقرأ أحد قط،
أن الحب، حين ينتهي، لا يغدو موتاً،
وإنما ضرباً مريراً من الميلاد

غفرانك لقلبي، الذي ضمّ
حباً جماً، مثلما اليعاسيب،
أعلم أنك، مثل كل الكائنات،
تتواصلين مع زخم من شهد
وأنك، من حجر قمري،
من القبة الزرقاء،
حررت نجمك،
متألقا بين النجوم،
لست بالهازىء ولا الكاره،
وإنما أمين سر البحر، لا أسمع
الكلمات التي تجرح

وأسترد
مكاني، تفكيري، فرحتي،
ولو أني بمقدوري أن أقر لك
بالحزن في عينيّ الشاردتين،
لما كان العقل والجنون ملكاً لي وحدي.
من جديد وقعت في شباك الحب، فأثار
الهوى موجة في حياتي،
وأترعني بالعشق، بالعشق وحده،
فمّا عدت استشعر كرهاً لأحد.

لذا، يا أرق
الراحلين،
يا خيط الشهد والصلب، الذي كبّل يديّ
في السنوات المترعة بالصدى،
وُجدتِ، لا مثلما كرمة يخاصرها
الشجر، وإنما كحقيقة، هي حقيقتك.

لسوف أمضي سنرحل،
هكذا يقول الماء،
والحقيقة تشدو إزاء الحجر.
يتسع مجرى النهر، ويغير موضعه.
ينمو العشب البري،
على الضفاف.
لسوف أمضي، سنرحل.

هكذا يقول الليل للنهار،
والشهر للعام.
الزمان
يصحح شهادة
الرابحين والخاسرين،
لكن الشجرة لا تهدأ في غمار نموها.
تموت الشجرة، فتقبل بذرة جديدة،
إلى رحاب الحياة، ويستمر كل شيء.
ليست المحنة هي التي تُفرّق
البشر، وإنما
النمو.
فالزهرة أبداً لا تموت، وإنما تواصل الميلاد.

غفرانك، إذن،
مثلما أسامح،
ويغلل الذنب الرجل، مثلما المرأة،
وينطلق اللسان.
جيئة وذهاباً،
مرتبطاً بالحنق والتعقد،
والحقيقة
هي
كل ما ازدهر
والشمس لا تلقي بالاً للندوب.

الليل

إلى الهواء المعتم أمضي،
ينساب الليل،
ويزدهر الصبر،
متنقلاً
بفراغه الهائل،
دائراً،
وقد ثقبته النجوم.
بأي ريش يلتف؟
أم تراه يمضي عارياً؟
يسّاقط على الجبال
المعدنية،
فيكسوها ملحاً
من نجوم صلبة.
واحداً إثر الآخر
تمضي
الجبال.
تمضي تحت أجنحة،

تمضي تحت ما صنعته يداه مسوداً،
وفي هذه الغضون
نحن
والطين يكسونا،
والإهمال يعلونا،
دُمَى
تغفو،
دونما كيان، ثياب النهار منحاة جانباً،
براعم ذهبية، قبعة تعلوها الشُرّابات،
حياة بشوارعها وأرقامها، هنالك جثم كل شيء
كومة من كبرياء فقير،
فقيراً لا يندّ عنه صوت،
آه أيها الليل، تفتح أيها الليل،
فماً، قارباً، زجاجة،
لا زمناً فحسب وظلاً،
لا إعياء فقط،
يقبل شيء ما، يمتلىء
مثلما قدح،
بحليب قاتم،
ملح أسود،
ويتهاوى
إلى
بثره،

قدراً،
كل ما يوجد يحترق، الدخان
يمضي باحثاً عن فراغ؛ ليطيل أمد الليل،
لكن
من رماد
الغد
سنولد.

آه، أيتها الأرض، انتظريني!

آه، أيتها الشمس، أعيديني
إلى بلادي ـ قدري
مطر الغابات العتيقة!
أرجعيني إلى عبقها، وللسيوف
التي تهمي من السماء،
إلى السلام في عزلة المرعى والصخور،
للرطوبة عند حواف النهر،
لرائحة شجرة الأرزية،
للريح تنبض بالحياة، مثلما قلب
يخفق في «أروكانيا» المزدحمة،
المطلة على الدنيا من علّ.

أعيدي إليّ أيتها الأرض هداياك الأصيلة،
أبراج الصمت التي شهقت
عالية من جلال جذورها!
أريد العودة إلى ما لم أكنه،
أن اتعلم الرجوع من مثل هذه الأعماق،
حتى أني بين كل الأشياء الطبيعية

قد أحيا أو لا أعرف الحياة. لا يعنيني
أن أكون حجراً إضافياً، الحجر القاتم،
الحجر النقي، الذي يمضي به النهر بعيداً.

باتاجونيا

(١)

أرض مريرة،
وماء يمتد نحو الجنوب شاسعاً.
عبرتُ،
ضلوع،
أقدام، بارد أصابع
الكوكب،
مطلاً من الأعالي،
على تقطيبته الصارمة،
الجبال العنيدة والثلج الباقي،
قباب الهباء
مشاهداً،
مثلما شريط تفضه الريح،
تحت الأجنحة الحديدية،
عداء

العالم الطبيعي.

ها هنا، القمم في الظل،
العواصف الثلجية،
والكبرياء الضارب نحو الآفاق،
التي تجعل الأماكن المهجورة
تأتلق،
ها هنا من خلال موعد ما مع
جذوري،
أو ماضياً فحسب تحت وطأة الريح،
لا بد أني قد وُلدت.
عليّ أن أتبينه، لدّى التزامات جلية،
إزاء هذا الصفاء المضطرب
وعلى كاهلي تثقل الفراغات التي ترقّش ماضيّ،
وكأنما تاريخي الإنساني المحدود
كُتب دفعة واحدة على الجليد،
والآن ربما اكتشف
اسمي، دهشتي الوحشية،
التمثال البركاني لوجودي.

(٢)

تتكشف بلادي
تويجية فأخرى،
تحت خرقها الممزقة،
لأنه من مثل هذا الرجل الوحيد
لم تنتزع الزهرة، ولا الخاتم، ولا القبعة،
وما عُثر في هذه البقاع الجرداء
إلا على لغة
العواصف الثلجية،
أنياب الجليد،
الفروع المضطرمة
للأنهار.
لكن هاتيك الجبال
تفعمني بالسكينة
سلامها النائي،
وزخم البدر
المتناثر،
مثلما مرآة تشظّت.

من هذه الأعالي أمسد
جلدي، عينيّ،
أحزاني،

وفي ذاتي الممتدة ألمح الظل.
«باتاجونيا» التي إليها انتمي.
أنتمي إلى التناقضات الشرسة
لنجم هائل
هوى، ملحقاً الهزيمة بي،
ولست إلا جذراً ناله الضرر،
في ذلك المشهد وئيد الحراك،
أحرقني الجليد المدِّوم عاصفاً،
شظايا الثلج،
دأب الريح،
الضراوة المحض، الليل
اليقين الضاري كالشوك.
وأنشد
من الأرض، من قدري.
هذا الصمت،
الذي إليّ ينتمي.

معزوفة مكسيكية

من «كيرڤاكا» إلى البحر، المكسيك امتداد
من أجمات الصنوبر، القرى بنية اللون يشعّبها
حجر عتيق، أرض بكر، عشب
ترقِّشه عيون سوالف العروس، والإيجوانا الخدرة،
سقوف من قرميد برتقالي، أشواك صخرية،
أفواه مناجم مهجورة، ثعابين
من نار، رجال يعلوهم الغبار،
وطرق تتلوى، وقد ضفرتها
تراكيب الجحيم ذاته،

آه، أيها الفؤاد الدفين، الحجر والنار،
النجم المثلم،
الوردة المعادية،
البارود المطل عبر الريح!

تجاوزتُ أحابيل
الضراوة العتيقة،
مسستُ

الوردة الخالدة،
طنين
اليعاسيب دائبة الصخور.
أياً كان ما يمسه ذلك الشعب الصغير
بالأصابع أو بالأجنحة -
نسجاً، فضة، خشباً،
جلداً، فيروزاً، صلصالاً -
فإنه يستحيل تويجاً عملياً،
يكتسب حياة، ويحلق في رحيل مؤتلق.

آه يا مكسيك، من بين كل
الجبال
أو الصحارى
أو المزارع،
في أراضينا، التي تقض مضجعها الدماء،
أختارك أنت،
لكيانك النابض بالحياة،
لحلمك الذي لا يطاله الهرم،
لعالمك السفلي المترع بالظلال،
من أجل تألق وعشق ما روضتهما الأيام.

هواء تنفسته الصدور،
هواء للصرخات
الجوفاء

يطلقها إنسان،
إنسان يشدو لك:
هكذا يمر الحاج
من القش إلى الحجر، إلى القبعات عريضة الحواف،
إلى الأنوال، إلى الزراعة،
وها هنا احمل على صدري ندب
هواك ومعرفتك.
وحينما أغمض عينيّ في الليل،
تتناهى إليّ الموسيقى المكرورة،
من شوارعك،
فأغفو، كأنما أحلق،
في هواء «سينالوا»،
أياد دفعت إلى رحاب الوجود
طبيعتك الخشنة،
أيادي رجال مجهولين
أيادي الجندي،
الموسيقى، حارث الأرض.
أُعد قوامك،
جُمع الصلصال والحجر.
حيث الأرض
تزاوجت مع المحيط،
وغصت بالأشواك،

بالصبار،
الذي فتحت جراحه الخضراء
العينان المترعتان سُكراً
للحلم والحنق،
هكذا أقبلت معاً في العشب،
الفراشات وعظام الموتى،
زهور الخشخاش والآلهة المنسية.

لكن الآلهة لم تنس.
المادة الأم، البذرة،
الأرض - الرحم.
الصلصال
المضطرم
بالخصب، المطر المتقد
فوق الأرض الحمراء،
في كل مكان
لقد حان وقت الأيدي:
من الرماد البركاني العتيق،
شرعت أياد داكنة، نقية،
في العمل
بالبناء، بالإعمار.
ربما، كما في الماضي السحيق،
عندما كان الغازي الضاري،

يحكم من بعيد.
وخسوف بارد
يكسو بعباءته
بدن الأرض الذهبي،
هكذا قاطع الأحجار
تحت زنزانته
من الحجر ومثول الشمس
نثر شهده النهاري.
ملأ الخزّاف السوق
بالكيان الملتف
لجرار الماء،
ومن غزل أخضر وأصفر،
أبدع النسّاج فراشات تتألق،
حتى أزهرت السهول القاحلة
بكبرياء مهارتهم.
أعرفُ
دغلك الضاج بالاصداء.
اكتشفتْ أقدامي الجنوبية
الأرجاء النائية من «تشياباس» الضائعة بالعبق.
أذكرُ
الغسق الهائل للرماد الأزرق
يحل فجأة،
وهنالك، بعيداً لم يكن

ثمة ضوء، ولا سماء.
سادت وريقات الشجر.
كان قلب العالم إيناع.
لما كنت لم أستشعر
انسحاقاً
تحت وطأة الأرض المعتمة أو الليل الأخضر،
رغم
التعاسة، والتقلقل،
ربما للمرة الأولى
لم أحس بنفسي
أباً للحزن،
أو ضيفاً
على الحنق الأبدي.

علمتني الأرض، بزخمها، وطنينها،
أن أكون دوماً منتمياً إلى رحابها.
عرفت الألم والهزيمة معا.
تعلمت للمرة الأولى،
من صلصال الأرض،
أنه في غمار غنائه
يصل الانسان المستوحش إلى الفرح.

يرن صوت
جولة الادغال،

مثلما قرقعة النار،
والعصافير كماء ينساب بلا انتهاء
صرخات حادة تندّ عن وحوش فزعة،
أو يهمي صمت فجائي،
على تلك الأرض المتشابكة،
ثم فجأة ترتعش الأرض،
تحت غطاء من جراد،

أذهلتني،
حد الرهبة، قهرتني
آلية سماوية
تُحرّك الليلَ وأصواته،

ارتجفت السماء، عبر الزنابق،
أخفت الظلال أحجارها المعتمة،
هنالك اصّاعد
هياج موجة
رهيف
التجوال المعدني
لنهر
من أجراس.

هنالك، الليل الموغل
اكتسب عيوناً جديدة،
وأترعت الدنيا وئيدة

بلون الظلمة .
راحت النجوم تنبض .
وحيداً كنت ، غلبني
تلاعب
نشّارات الليل ، الأنشودة
شاسعة المدى لعالم الجراد
السري .
إلى أرضي عدتُ ، ومطلاً
من نافذة الشتاء ،
أرقبُ الأمواج الدائبة
في البحار الباردة المعانقة لإيسلانيجرا
جلال الظهيرة
ينهار تحت وقر الملح ،
ومصبات الزبد تصّاعد
إلى لا نهائية الزمان والرمل .
أرقب الطيور .
تنطلق مسرعة ، كسفن سَغِبة
تطير فوق البحر ،
بحثاً عن نار زرقاء ،
سعياً وراء حجر دافىء ،
أحسب أن انتصار أجنحتها
ربما سيمضي بها إلى الهبوط يوماً

على ساحل
المكسيك طليقة السراح .
ظمأ ينبع من نصف الكرة هذا
يمضي بها عبر
ممر غامض
يجتذبها .

ها هنا أقول لها
اهبطي ، هلمي
إلى الضياء الأزرق
لشجيرات النيلة البراقة ،
وانثري ثمار تحليقك
على سواحل المكسيك !
للطيور
السغبى المقبلة
قدِّمي حصادك المعطاء ،
أسماك نورك ، أعاصير
دمك النشط !
آه ، أيتها المكسيك ، تلقّي
مع الأجنحة التي حلقت
مقبلة من الجنوب النائي حيث القارة
تنتهي في الزبد الأبيض ، جسد
أميركا المجهولة !

تلقّي نبض
كياننا المنفصل الذي يعرف
دمك، غلالك، عجزك،
نجمك الذي لا حدود له!
من العشب ذاته نمونا.
وفي جذورنا
تتوحد.

الحسد

انتزعت الحاسدين واحداً، إثر الآخر،
من ردائي، من جلدي
رأيتهم يتحلقونني كل يوم.
أطلت التفكير فيهم
بمملكة قطرة
ماء شفافة.
أحببتهم قدر ما استطعت في غمار بؤسهم،
أو في رصانة أعمالهم،
وحتى الآن لست أدري
كيف ولا متى
استبدلوا بالزنابق واشجار الليمون
تقطيبة صامتة
أو حيثما كان يجب أن ترتسم ابتسامة أليفة،
حل جرح بليغ.
يا لجرح الفم البليغ ذاك!
يا لكل ذلك الشهد الذي استبدل!

رياح العمر ثقيلة الوطأة
جلبت، في ترحالها،
الغبار، الطعام
البذور، التي فلقها العشق،
التويجات، التي جرحتها الثعابين،
الرماد الضاري لكراهية ميتة،
وكل شيء
ازدهر في الفم الجريح،
أطلّ نسيج عنكبوت من المشاعر،
وضربت الحثالات التعسة، النابعة من كون المرء منسياً
جذورها للمجسات المنتشرة،
ميدوزا الحسد الأقحوانية.

حينما تصيد الأسماك يا «بيدرو» ماذا عساك تصنع بها؟
أتعيدها للبحر ثانية، تمزق شبكاتك،
تغمض عينيك عن الدوافع،
في نسيج الإنتاج الهائل؟

بخطيئتي أعترف!
أياً كان ما أخذته من البحر،
مرجاناً، حراشف أسماك،
ذيل قوس قزح،
سمكة أو كلمة أو وريقة مفضضة،
أو حتى حجراً من تحت الماء،

فقد رفعته عالياً، ومنحته ضياء روحي

لما كنت صياداً؛ فقد جمعت كائناً ما تعرض للضياع،
وما ألحقت جهودي الضير بأحد،
لم ألحق بأحد أذى، أو ربما آذيت حتى الموت
شخصاً أراد الضياء لنفسه، فما نال
إلا إياي مفرغاً ذاتي في أنشودة،
ألزمت أناشيده التي لم تعرف الترويض الصمت،
شخص لم يرغب
في السباحة بصدري
فانطلق ماضياً
في سبيله،
لكن الريح أقبلت
وحملت صوته بعيداً،
فما عرف الميلاد قط
أولئك الذين تاقوا لرؤية النور،

الشجرة بضعة من الغابة، لكن ربما كان بمقدور الإنسان
أن يشب عن الطوق متجاهلاً
انحناءة كل شيء حوله،
وعلى حين غرة
لا تعود هناك جذور فحسب، وإنما ظلمة
لا ثمار فحسب، وإنما ظل،
ظل وليل خلّفهما الزمان والاخضرار

فيما هما يوغلان في النمو،
حتى لا يعود في الرطوبة الدانية،
حيث تنتظر البذور الانفتاح
أثر للضياء المنقِّب،
تُحجب هبة الشمس
عن البذرة الغرثى،
وعميقاً في غور الظلمة،
تتراخى الروح في انتفاضات ألمها.
ربما لست أدري، ربما لست أدري،
ربما لم يقدر لي أن اعرف قط،
في غمار انشغالي، لم يتح لي الوقت
لأرى، أو اسمع، أو أسعى، أو أستشعر
كل هذا الذي كان يحدث، وبضمير خالص
اعتقدت أن واجبي أن أغني،
أن أنشد فيما أكبر وأخلّف عمري ورائي،
خارجاً من غمار ألم الصراع.
كان التزامي، وظيفتي،
فيما ألازم النجارين في البكرة،
وأعب الغبوق مع الفرسان،
أن أصب أغنيتي فيما أنظم،
وحسبتُ أني أجترح هذا،
فوق النار، أو بعيداً،
عن النار،

دانياً من المصدر أو خارجاً من الرماد،
حسبت أني بتقديم كل ما لديّ،
بطعن ذاتي حفاظاً على يقظتي،
بإعطاء رؤيتي كلها، وقتي بأسره، حياتي جميعها،
دمي وكل تفكيري،
وما تعلمته من كل شيء،
كرم زهور القرنفل،
الخشب وسلامه العبق،
العشق ذاته، الأنهار، الموت،
كل ما منحتنيه المدينة، الأرض،
كل ما لملمته من رحاب موجة خضراء،
أو دار خلّفتها الحرب خاوية،
أو مصباح ألفيته موقداً
في قلب الخريف
والرجال أيضاً وما كيناتهم،
الرجال الكادحين ومتاعبهم،
أو السفن المبحرة عبر الضباب -
كل ذلك، وأكثر منه، كل ذلك، الذي ألفيت نفسي مديناً به.
لكل رجل من اجل الحياة التي تنبض في أعماقه،
اجترحت ما استطعت لأسدد الدين، وما كانت لدى عملة أخرى
دمي
والآن ماذا عساني أفعل بهذا الرجل وبهذا الآخر؟

ما الذي أستطيع اجتراحه كي أرد
ما لم اختلسه قط؟ لماذا جلب الربيع
إلى تاجا أصفر
ومنذا الذي مضى، شاعراً بالغبن والحيرة،
يبحث عنه في الغابة؟
ربما فات أوان إماطة اللثام
عن الوضوح الغائب للحقيقة،
وسكبه في قدحه الممرور.

ربما أحال الزمان إلى حجر صوته،
فمه، سلوكه القويم،
وعقارب الساعة لا تمتلك العودة إلى الوراء،
لتضمنا معاً في رقة وود.

دامت الكراهية الفجة طويلاً،
فجعلت من حنقها معقلاً
وأعدت لي عرشاً وحشياً،
تظلله أشواك صدئة، لطّخها الدم.
لم تكن الكبرياء هي التي جعلتني أنأى
بفؤادي، عن مثل هذه الفظاعة،
كما أني لم أهدر
في الانتقام
أو السعي وراء السلطة
القوى التي نبعث من أحزاني الأنانية

أو من أفراحي المتراكمة .

كان شيئاً آخر . . . هو عجزي

كان ذلك لأنه مع كل تقريع

كان اليوم
الذي أطل فجره
ينتزعني من جرح جديد ،

يغلل يدي ، فتنمو
الأُشنة على حجر صدري . . .
علتني النباتات الزاحفة ،
غطتني أياد خضراء ، صغيرة ،
ولذتُ بالغابات ، طليق الكفين ،
أو رقدتُ تحت جناح البرسيم الحانى .

آه ، لشد ما أعنى
بحد سيفي القاطع ، ووئيد
هو مقدم غضبي ،
تسعدني
طبيعتي الصلبة ،
ولكن حينما تهدل القمرية ،
في البرج ، ويمد الخزّاف كفيه
إلى صلصاله ، مبدعاً وعاء ،
ارتجف ، يخترقني

هواء بالغ الحدة،
ويحلق فؤادي مع القمرية.

يهطل المطر، فأخرج، لأجرِّب انهماره.
أنطلق إلى الوجود الذي أعشق، الحضور المتجرد
للشمس على صخرة،
كل شيء ينمو، يعلو، دون أن يدرك
عجزه عن إنهاء نموه
السنابل تتخم بالحنطة، تتزايد
إلى أبعد ما يحيط به العقل، هكذا قدِّر لها،
دونما أمر أو نهي،
ومن بين الأمور التي تأبى تفرقاً
ربما كان هذا الدافع الخفي،
هياج البحر والرمل هذا
يملي شروطه،
وما أنا بذاتي، لكنني مادة تدب فيها الحياة
تختمر، وتصوغ أشكالها،
في الخصب اليومي.

ربما حينما شهر الحسد
خنجره في وجهي،
وغدا مهنة أناس بعينهم،
منح جسدي المزيد من الغذاء،
الذي مست إليه حاجتي في عملي،

حصناً ضارياً، منحنى
دافعاً حاداً لمواجهة ساعة غريبة،
لساناً لا يفتأ يلعق الماء.

ربما كان الحسد ذلك النجم الذي
صيغ من كأس تشظّى،
هوى
في درب ممرور،
وساماً قُلّد
للخبز الذي أجلبه، مدندناً، كل يوم،
ولفؤاد الخبّاز الطيب، الذي أحمله بين جوانحي.

سوناتا نقدية

الفـن السـاحـر

من وفرة التنقل والترحال تولد الكتب.
وإن لم تضم قبلات وملامح من حضن الأرض،
إذا لم تحو إنساناً، امتلأ كفاه،
إذا لم تسع امرأة، عند نهاية كل مقطع،
سغباً، يأساً، غضباً، طرقات،
فإنها تغدو بلا جدوى، مثلما حاجز ريح، أو جرس،
ما لها من عيون، فما بوسعها أن تفتحها،
ولها الرنين الميت لأوامر الرؤساء.

أحببت تداخلات أعضاء العشق،
ومن رحاب الدم والحب نَحتٌّ قصائدي.
وفي الأرض الوعرة، جلبت الإزدهار لوردة
اقتتل عليها الندى والنار.

هكذا استطعت مواصلة الشدو.

الليـل

لا المعرفة أُريدُ، ولا الحلم.
منذا بوسعه أن يعلمني ألا أكون،
أن أحيا دون مواصلة العيش؟

ترى كيف يواصل الماء التدفق؟
وأيّان مثوى الأحجار؟
يجثم الليل ساكناً، حتى تحدد الهجرات
الهائلة مسارات انطلاقها،
وترحل، في النهاية، على أجنحة رياح
الأرخبيلات المتجمدة.

يجثم مع الحياة السرية
لمدينة، تحت الأرض،
سَئِمَتْ شوارعها،
المتوارية تحت التراب،
فما يدري الآن بوجودها أحد.
تجردتْ من العمال والأسواق،
وراحت تقتات صمتها.

تحتجب هوناً،
تتحدث دونما ألفاظ، فما تصغي
إلا لقطرات بعينها تهمي،
إلا لظل بذاته يمضي.

إلى مَن فرّق الخلاف شملهم

هذه الزيجات التي طالتها المرارة،
وأولئك الأزواج الذين بَعُدَتْ بينهم شقة الخلاف،
لماذا لا يغضون جمعهم،
لم لا تنتهي أقاصيصهم،
زمجرات «جوان» و«جوانا»،
مشاجرات «بيدرو» و«بيدرا»،
صفعات روزو وروزا؟

ما من أحد يود البقاء إلى جوار
زوجة، هي إلى سيّاف البحر أقرب،
امتشقتْ الجِدالَ الصاخبَ سلاحاً،
أو راحت تنحل في فيض من الدموع الملحية.
أرجوكم اتفقوا لطفاً،
على الأقل على ألاّ تتفقوا!!
لا تظلوا ممتشقين
سكاكينكم، شوكاتكم وأسنانكم المستعارة!
في مصب نهر الحب،
لا يزال ثمة مجال للدموع،

وليس ثمة تراب يكفي
لردم قبر الحب،
لكننا لا نمضي إلى الفراش، عند المغيب،
ليجرحِ أحدنا الآخر، ويغرس الأسنان في لحمه ـ
فقد تُرك ذلك للأوكار المظلمة.

إلــى أوراق اللعــب

ليس لديّ
إلا ستة ديناريات،
سبعة كوبات.

ونافذة من ماء.

ولد يرتجف،
وملكة تمتطي صهوة جَواد،
وتمتشق سيفاً.

ملكة ضارية،
مخضبة الشعر بالدم،
مذهبة الكفين.

الآن دعهم يحدثونني
بأي الأوراق ألعبُ، أيها أُلقي على المائدة،
أيها أُنحِّي جانباً، أيها أسحبُ ـ
ربما أوراقاً وحشية،
كوبات وحيدة،
ملكة أم بستوني،

ليطل أحدهم ويخبرني،
ليطل على لعبة الزمن،
ساعات عمرنا،
لعبة أوراق الصمت،
الظل وغرضه،
وليحدثني بأي الأوراق ألعبُ؛
لأواصلَ الخُسران.

فجـر يبـزغ

فجر يبزغ بغير ديون،
دونما شكوك،
ثم
يتبدل حال النهار،
تدور العجلة،
وتتمجد النار.

ما من شيء يبقى
مما أطل بازغاً، استهلكت الأرض نفسها،
حبة كرم فأخرى،
تُرِك القلب بغير دم،
وغُودر الربيع بلا وريقات شجر.

لِمَ حدث ذلك كله في هذا اليوم بعينه؟
ولماذا أُسيء فهمه منذ قرع أجراسه؟
أم أن كل شيء ينبغي أن يكون على هذا المنوال؟

كيف نثني الخيط، نَحُلَّهُ،
نواصل رد الشمس، عوداً إلى الظلال،

نُعيد النور حتى يكبر
الليل مجدداً مع النهار؟
ليت هذا اليوم يغدو طفلنا،
كشفاً بلا انتهاء، شذا
زمن استرددناه،
قهراً للدَيْن وللشك،
حتى تغدو
حياتنا
جوهراً نهارياً خالصاً،
تياراً نقياً.

العزلـة

كان غياب الأحداث جدّ مفاجىء،
حتى أنني مكثت هناك للأبد،
دون أن أدري وبغير معرفتهم بي،
كأني كنت جاثماً تحت مقعد،
كأني ظللت الطريق في الليل،
كان غياب الوجود على هذا النحو،
هكذا ظللت للأبد.

فيما بعد، ساءلت الآخرين،
النسوة، الرجال،
ما الذي كانوا يعكفون عليه بمثل هذه الثقة
وكيف تعلموا أن يخوضوا غمار الحياة.
فما ردوا ليّ سؤالاً،
وواصلوا الرقص والعيش.

ما يحدّد الصمت
هو ما لا يحدث،
ولست أرغب في مواصلة الحديث؛

فقد مكثت هناك منتظراً،
في ذلك الموضع، في ذاك اليوم،
لم أدر ما الذي حدث لي،
لكني الآن لم أعد مثلما كنت.

أخيراً لم يعد هناك أحد

أخيراً لم يعد هناك أحد، لا، لا صوت، لا فم،
لا عين، لا أيد، لا أقدام. إنحسرت جميعها إلى البعيد.

يمضي النهار الناصع، مثلما الطوق،
والهواء البارد معدن تعرّى
أجل، معدن، هواء، ماء، ازدهار
أصفر، عنقود غليظ
وثمة شيء آخر، إلحاح عطرها،
إرث الأرض النقي.

أين تكمن الحقيقة؟ لكن المفتاح
ضاع، في غمار جيش من الأبواب،
جثم هناك، وسط الآخرين،
دون
أن يعثر قطّ
على قفله، مجدداً.
في النهاية،
ولهذا السبب، ليس ثمة مجال يضيع فيه

المفتاح، أو الحقيقة، أو الكذب.

ها هنا،
لا وجود للشوارع، وما من أحد يوصد باباً وراءه.
لا يتفتح الرمل إلاّ لزلزال.
ويتفتح البحر كله، الصمت جميعه،
الفراغ بأزهاره الصفراء،
يتفتح عطر الأرض الضرير،
ولما كانت الطرقات لا وجود لها؛
فما من أحد سيأتي. العزلة
وحدها تطّن،
مثلما جرس يقرع.

ربما لم يمض الوقت بعد

ربما لم يمض الوقت، بعد،
لنحقق وجودنا، ونغدو عادلين.
بالأمس، ماتت الحقيقة،
ميتة أبعد ما تكون عن أوانها،
ورغم أن الكل يعرف بالأمر،
فقد أوغل بالتظاهر.
لم يرسل إليها أحد زهوراً،
بلغها الردى، الآن، وما من أحد يسكب دمعة.
ربما بين الأسى والنسيان،
قبيل الدفن،
ستتاح لنا فرصة موتنا وحياتنا،
لكي نمضي من شارع إلى آخر،
من بحر إلى سواه، من مرفأ إلى ميناء،
من جبل إلى طود،
وقبل كل شيء من رجل إلى آخر،
لنتبين ما إذا كنا قد قتلناها،
أم أن آخرين اغتالوها.

ما إذا كان أعداؤنا
أو عشقنا هو الذي اقترف الجرم،
لأن الحقيقة يلفها الردى،
وبوسعنا الآن أن نكون عادلين
اضطررنا، من قبل، إلى خوض غمار القتال،
بأسلحة يلف الشك ثقلها،
وفيما كنا نثخن أنفسنا بالجراح، نسينا
ما كنا نقتتل من أجله.
لم ندر قط دماء من
تلك التي ضرجتنا،
كلنا اتهامات لا نهاية لها،
وبلا انتهاء تعرضنا للاتهام.
قاسينا، وجعلناهم يعانون،
حينما ظفروا، في نهاية الأمر،
وفزنا كذلك،
كان الردى يلف الحقيقة،
جراء العنف أو الشيخوخة.
الآن، ليس ثمة ما نجترحه،
فقد خسرنا المعركة جميعاً

هكذا أحدث نفسي بأن ربما
كان بوسعنا أخيراً أن نكون عادلين،
أو أن بمقدورنا، في آخر الأمر، تحقيق وجودنا

أمامنا هذه اللحظة الأخيرة،
ومن ثم إلى الأبد،
نتداح إلى غياب التحقق، إلى حيث لا عود إلى الوراء.

الإيبيـزود

اليوم، طاب صباحك مجدداً، أيها العقل
مثلما أحد الأسلاف، أو بالأحرى،
مثلما أولئك الذي سيقبلون للعمل غداً،
مشرعين أدواتهم بيد،
ومعانقين الكبرياء بأيديهم كلها.

دونهم ما شقت السفن صدر اليم،
والأبراج ما ملكت شيئاً تحجب به خطرهم،
والرحالة تعثّر في قدميه ـ
آه، يالهذه الإنسانية التي فقدت مقصدها!
يصيح الميت إذ يتركها خلفه،
يتركها لفجاجة الطمع،
فيما توازننا يغطيه انبعاث حانق
لاستعادة درب العقل.
اليوم، مجدداً، ها أنذا أيها الرفيق،
أُقبل حاملاً حلماً ألذّ من الفاكهة،
يرتبط بك، بقدرك، بعذابك.
يتعين عليّ الخلاص من الكبرياء، العزلة، والتوحش،

أن أحتل موقعي، على أرض مشتركة، وأن أعود
إلى الحفظ على ملاذ الالتزامات الإنسانية.
أعلم أن بمقدوري استحضار الفرح البريء
بمخلوقات نقية تشابكت في الكلمات،
تتعثر عند المداخل الزائفة للجحيم،
لكن تلك مهمة تُناط بالمتخمين.
لا يزال شِعْرِي درباً، في غمار المطر،
يسلكه الأطفال الحفاة إلى المدرسة،
الصمتَ وحْدَهُ يلحق بي الهزيمة،
ولئن منحوني قيثاراً، لأُغنيّن عن أمور مريرة.
ساءل الجميع أنفسهم: «ما الذي حدث؟»

الصمت العظيم

ساءل الجميع أنفسهم، دونما طرح للسؤال،
وبدأت حياة يسري السم في أوصالها.
نهاراً وليلاً، وما من أحد كان يدري السبب.
راح يسعى، كالحية، في الظلام،
كأنما جليد أسود يرتمي على الممشى،
كانت أذان سَغْبَي تنتظر إشارة،
وكل ما انبعث
كان طنيناً خافتاً، يملأ الأماكن كلها معاً.
غاب الكثيرون، حتى أن الثقوب التي تركوها

تشابكت ثقباً مع الآخر،
وثقباً آخر فتالياً، فقابعاً،
شكلت شبكة، وتلك هي البلاد.
أجل، فجأة استحالت البلاد شبكة.
التفّ الكلُ في العدم،
في شبكة دونما حبال، قُيدت
العيون، الآذان، الأفواه.
ما كان بوسع أحد أن يحس؛
فلم يبق ما يمكن الوصول للإحساس به.
ما عاد لهم الحق في أن يكون لهم لسان.
وما استطاعت العيون أن تلحظ حالات الغياب،
غاص الفؤاد في أغوارها.
مضيتُ، كنت هناك، صفّقتُ،
رفعتُ الكأس المكسو بلون النهر،
طعمتُ خبزاً كسبه الدم،
رقدت في رحاب الشرف الإنساني،
وكانت وريقات الشجر ماجدة في نموها.
كأنما شجرة واحدة ضمت
كل نماء الأرض،
وحيّاني إخوتي كلهم،
بالنبل الجديد الحقيقي
لأولئك الذين بأيديهم الغارقة في الطحين
قدموا خبز العالم الجديد.

ورغماً عن ذلك، فقد شعرنا وقتها، فيما بيننا،
بحضور حانق، بذلك الجرح
من دم وظلمة وسطنا ـ
كل ما فرض ذاته، الصمت وذلك السؤال.
الذي لم يرتفع إلى الأفواه، الذي لقي حتفه
في الدار، في الشارع، في المصنع.
غاب أحدهم، لكن أياً من
أمه أو أبيه أو أخته أو أخيه.
لم يستطع مواجهة الهوة، التي خلّفها ذلك الغياب المرير،
ترك الغائبُ فراغاً، مثلما ندبة خلّفها جرح.
وما كان بمقدور الأصدقاء البحث أو التساؤل،
دون أن يستحيلوا هباء،
يتبددون فجأة في الفراغ،
دون أن يلاحظ أحد أو يدري شيئاً.

الأسى

يا لذلك الألم الهائل الذي ولّده الانتصار الأجوف
في كل القلوب! شنقتها
مجسات الخوف،
المندلعة من «برج الساعة»،
التي تحدرت زاحفة على جدران الحصون الحجرية،
وشقت طريقها إلى كل الدور، مثلما الظلال.

آه، حلّ زمان يحاكي المياه الممرورة
للمستنقعات، بئر الليل
المفتوحة، التي تبتلع طفلاً ـ
فما يدري أحد، وما يسمع الصراخ كائن.
وتبقى النجوم في مداراتها.

الخوف

ماذا حدث؟ ماذا جرى؟ ما الذي وقع؟
وكيف أمكن أن يقع؟ لكنه يقيناً
حدث، جليٌ تماماً أنه جرى،
كان حقيقياً، صحيحاً، الألم النابع من عدم الرجوع،
هوى الإثم في أنبوبه الرهيب،
ومنه انبعث شبابه الفولاذي.
رفع الأمل أصابعه
آه، يا للراية الكئيبة التي رفرفت فوق
المنجل المنتصر، ولشد ما أثقل على المطرقة
تمثال واحد رهيب!
رأيت هذا التمثال منحوتاً في الرخام، في الحديد المفضض،
في خشب الأورال الخشن،
وكان شارباه جذرين توأمين.
رأيته في الفضة، في عرق اللؤلؤ، في الورق المقوى،
في الفلين، في الحجر، في القصدير، في المرمر،

في السكر، في البرونز، في الملح، في اليَشَب،
في الفحم، في الصلصال، في العظم، في الذهب،
متراً، عشرة أمتار، مائة متر،
ملليمترين على حبة أرز،
ألف كيلومتر من الحرير.
دوماً تلك التماثيل المزخرفة
للرب ذي الشارب المتطاول، منتعلاً حذاء ركوبه
وسراويله النقية،
التي أنجزتْ كيَها عبوديّة حقيقةٌ
رأيتُه في أبهاء الفنادق،
على المناضد، في الحوانيت، في المحطات
في أضواء المطارات البراقة،
ذلك التمثال، بارداً نائياً،
تمثالاً لرجل ظل، في قلب الحراك،
جامداً، مَيْتاً، وسط الانتصار.
ذلك الميت كان يدير حكم الضراوة
من تمثاله الموجود في كل مكان، في آن واحد.
ذلك التمثال الساكن كان يهيمن على الحياة.

مستحيل

ما من إنسان يستطيع المخاطرة بتحويل نفسه
إلى نصب، نصفُه من حجر، وشطرُه من شرطة.

ذلك هو ما وقع له، ذلك الشبح الهائل،
الذي بسط وجودَهُ بمرسومٍ بقانون.
وحينما تضخم شيئاً فشيئاً، ليغدو جبلاً من جليد،
تجمدتْ طبيعتهُ،
من خلال طبيعة البرد ذاتها،
هكذا، فإن من تلاعب بالحب
أقام نُصُباً تذكارياً للبؤس.
ترى أكان «بيريا» وعملاؤه، الذين لا يعرفون الرحمة،
هم الذين شادوا صرح وجوده أم أنه شاد صرحهم؟

الإرهاب

يحجب وليد الإرهاب
الخسوف، القمر، الشمس الملعونة
لذريته المُضرجة بالدم،
وإله مجنون يصدر الأحكام ـ
جيش شاحب من اليرقات،
يدور، في فوضى، ضرير العين والقبضة،
وملقناً دروساً في المقت والمعاناة،
وما من شيء يبقى في أعقابها،
ما من كتاب يظل، أو لوحة، أو ذاكرة.
حتى الطفل البريء عليه أن يحمل
اسماً جديداً ودروساً في الهلاك.

في غضون ذلك، في برجه، في تمثاله،
استشعر رجلُ الإرهاب خوفَه،
الظلال الضارية المترعة بالوعيد،
صفير العزلة المهموس.

إجازته

وجنوباً، جنوباً، نحو «القوقاز» يمضي
متستراً، متشحاً بالغسق،
ساعياً وراء الشمس، التي حجبها عنّا،
وراء ضياء أيام «جورجيا».
(ربما غدت طفولته هناك
عالماً سُفلياً جَهْماً من جديد،
ربما هناك بين الخوف والحقيقة
طرح على نفسه السؤال الذي يعذبنا:
ما الذي يحدث؟ ماذا جرى؟ وربما
لم يجد مشيدُ صرحِ الخوفِ رداً)

الجنوب، موطنه

من ذلك الموضع، ذلك الشهد المتألق،
اهتياج اليعاسيب ذاك،
سكون الظهيرة، الماء، السماء،
الشذا النابض بالحياة، الحجر، الإيناع الأخضر،

من ذلك الموضع أقبل شبابه المتصلب.
وأياً كان ما تعلمه، كلمات،
عملاً معلناً، أو نضالاً سرياً،
فقد صِيغَ من رجال كثيرين، مثلما
تظل بنية كائن حي أو نبات
ووسع رحاب تلك العائلة الآباء،
الأخوة، الأبناء، اللاجئين، الانتصارات،
راية، اجتماعات، صيحة، مذهباً ـ
خطيراً، مثلما الصاعقة،
وإلى الحضيض، انهارت شجرة الماضي.
منه استمد اليو م توجهه،
في غمار سعيه لاستشارة الضياء،
ووزعت حكمته، كأنما لكل البشر، ولو أن ذلك
أمكن نسيانه، مثلما زي رسمي،
لغدا كائناً عارياً،
تمجد الآمه أو تنتقد.

لم يكن العهد به كذلك

حلّ به ذلك حينما التقت
يداه بأيدي الجميع،
عندما واكبت خطوته مسار الآخرين،
حينما لم يكن يبدو مثلما ملك البستوني
في أوراق اللعب، ضارياً أو مرقّشاً بالنجوم.

الحرب

صمدَ في الحرب، رأساً وكتفين،
مقدمة... سفينة متألقة، والنصر
ما زاده إلاّ رفعة، وهنالك ظلَّ،
بلا حراك، منتصراً، ونائياً.

حينما يكتمل البدر، تتجمد الروح.
ما من شيء ينمو في مرآته المقفرة،
عدا صورته، الاستدارة
الدائرة حول قطب واحد، في بُعد واحد،
والمجال الثلجي عصي التغيير.

الألم

هكذا تبدأ غربة الروح:
بصحبة مرآة، دونما أحد، مع لوحة،
لا بشر، لا حزب، لا حقيقة،
همسات، ضروب غيرة، عزلة،
بلا رفاق، بغير معنى، دونما غناء،
بأسلحة، ركامات صمت، أوراق،
لا أناس، لا مناقشات، لا ابتسامات،
جواسيس، ظلال، دم،
لا فرنسا، لا إيطاليا، لا زهور قرنفل،

نسخ من «بيريا»، تابوت، الموتى،
لا تواصل، لا فرح،
اليد الحديدية والضراوة،
إذ لا تدري متى تجتث الأشجار،
آلام الكبرياء، الخُنق،
لا تقتسم الخبز ولا طيب العيش،
مع المزيد والمزيد والمزيد والمزيد،
ودونما أحد، بلا أحد، لا كائن على الإطلاق،
مع أبواب مُوصَدة وجدران،
لا أحد من أهالي المخابز،
أغلال، أربطة، اختفاءات،
ما من يدٍ تُبسط، ما من زهرة تُقدم،
رشاشات وجنود،
لا مناقضة، لا ضمير،
منفى، برد، جحيم،
لا أنت، لا روح، وحيداً، وحيداً مع الموت.

ونظل على صمتنا

مؤلمة هي المعرفة. وقد عرفنا
كل حقيقة رشحت من الظلال،
ألقت بنا في عُباب معاناة حتمية ـ
استحالت هذه الشائعات إلى حقائق،

العتبة المظلمة، أترعت بالنور،
وألوان العذاب سيمت على وجهها الصحيح.
كانت الحقيقة هي الحياة، التي انبثقت من ذلك الردى.
ثقيلاً كان الوقر الهائل للصمت.
ورغماً عن ذلك، كان الدم ثمن الاحتمال،
عديدة كانت أحجار الماضي الصلدة.
ولكن أي أيام الانتصار كان ذلك اليوم!
اخترم خنجر ذهبي حُشاشة الظلمة
واندلع الكلام ناهضاً، مثلما عجلة،
تدور في النور المستعار،
حتى أقاصي الأرض.
الآن تُتوّج الأزهار
رحابة الشمس وطاقتها.
من جديد رد الرفاق
على أسئلة الرفاق الآخرين
وذلك الطريق، الذي تلوى ضائعاً،
عاد، بالحقيقة، إلى كونه درباً.

الشيوعيون

نحن الذين نفخنا، من روحنا، في الصخر،
في الحديد، في الانضباط الصارم،
واصلنا الحياة بالحب وحده،

والكل يعرف بأنّا نزفنا دماً،
حينما شُوِّهتْ النجمة،
على يد قمر الخسوف الجهم،
الآن سترون من نحن وفيم نفكر.
الآن سترون من نحن وفيم نفكر.

نحن فضة الأرض النقية،
معدن الإنسان الحق،
نجسّد حراك البحر الدائب،
دعم كل الآمال.
ولحظة في الظلام لا تسلبنا النظر.
ودونما عذاب سنلقى حتفنا.

أعدائي

من جانبي سأضيف شجرة
إلى انتشار الطقس الرديء المتواتر.
سأذكر نفسي وهذه الأسماء،
التي أشارت بإلقائي لأنياب الموت.
أولئك الذين ما أحبوني، وراودهم الأمل
في أن الكوكب سينهار، فيسحقني

دنت الذئاب

حينما شحبت حصباء الفجر،
الحجر، الثلج، الياقوتية، الشهد، الرمل،
في القلاع،
مع خمود التاريخ للحظة.
زحفوا ضدي، وضد شعبي؛
ليلطموا رأسي على الأرض،
ظانين أنفسهم الأحياء والموت لي،
ربما حاسبين أن أعمالهم تبررها
قوائم معاناتهم الطويلة،
خالقين لأنفسهم لحظة دوام،
في المساء الهش للذاكرة.

بلا تفاخر

عن ذلك العهد، ولأولئك الذين لم يشهدوه،
لن أترك في هذه الصفحات العابرة،
ضروباً للتفاخر، العذاب، الفرح.
كان اجتياز ذلك العهد دافعاً كافياً للشدو،
ولكن تُرى إلى أين يمكن أن تكون أغنيتي قد مضت؟

كنا موالين

تولت ريح المحبة رعايتها،
لم تسع إلى أبراج مهدمة،
تماثيل تعفّرت بالتراب،
شباك غدارة للديدان،
ولم تسع عن طريق الخطأ إلى بلادي الهالكة،
في تردُد رُفضت،
وعادت فرددتها الشفاه، دون أن تولد،
دون أن تعرف نور مولدها.

لسنا للبيع

عبثاً ذهبت الأغلال، التي راكمها
مُلّاك المزارع المترامية،
عبثاً ذهبت مكائد التجار،
الذين يضعون بيضهم الذهبي في العتمة،
وقوانين الروح لا تسمح
برواج العملات والمصارف.

الشعر

وهكذا، ألقى الشاعر بمقاديره،
إلى جانب أخيه، الذي أوسعوه ضرباً،

إلى جوار أولئك الذين عملوا سراً،
وبعد الصراع مع الحجر،
أطلّ على الحياة، من جديد، وحيداً، ليمضي إلى الرقاد.

الشاعر

واختار كذلك بلاده موصدة المصاريع،
أم البازلاء والجنود،
ذات الحواري المظلمة تحت المطر،
والأشغال الليلية الشاقة.
لذا أرجوكم لا تتوقعوا عودتي!
فلست ممن يعودون من رحاب الضياء.

لا، يا أصدقائي!

عبثاً تجسسوا أمري، أولئك الذين انتظروا
وقوفي، عند المنعطف، بائعاً
أسلحتي، أفكاري، آمالي.
كنت أسمع كل يوم التهديدات،
عروض الرشاوي، أعاصير الغضب، الأكاذيب،
وما تراجعت عن نجمتي.

الشرف

ها هنا قرب البحر، بدا كل شيء بلا جدوى،
كم هائل من الاتجار، الغش سداه،
لكن أولئك الذين سينظرون غداً
بعيني عصر مختلف،
إلى هذا التخم بين حياتي وموتي،
سيدركون أني في الشرف وجدت فرحتي.

الشر

مسوقاً بقوة أخطائه، يسعى
الإنسان، في وضعه البائس، المتهافت، إلى من
يستطيع أن يلقي على كاهله
وقر الأعباء التي تحملها دونما تساؤل،
ثم يقذف بالحجر الذي كان يحمله
ذلك الإنسان الذي شق له درباً.

وقد تلمست ذلك الحجر على جبيني.
جرحي تذكار من أخي،
الذي أحبني، من غير أن يجد سبيلاً
إلى محادثتي، دون إثخاني بالجراح،
رجل كرهني، دون أن يدري
أنني في النور انتزعت ظلامه،
وأن المعركة التي خضت غمارها كانت للخلاص من شقائه.

إني لا أستسلم

أرادوا جميعاً
أن يسقط همي ولوائي من الأعالي،
وأن أتخذ من الغسق قدوة،
فأقر بخطأي، وأتلقى
ميسمي، باعتباري منشقاً.

وفي ذلك الموعد المتأخر، قام منتقدي الخَرِف
بنصب المشنقة لي.
لم يكن ذلك بالأمر الهين، لكنه ما كان كافياً،
وكما لو كنت جمهورية انفجرت، مندلعة إلى رحاب الثورة، فجأة،
نَفخ في الصور ضدي،
وأقبلت ديدان هزيلة،
إلى المرحاض، حيث قام «بيبسيارو»
بعقد محكمة في بوله.

ها أنذا

وضّاء هو النهار، وناصعة صدرت الرمال في غُسلها،
بيضاء وباردة، تقلب الزبد في البحر،
وفي تلك العزلة التي لا حدّ لها،
واصل نور حريتي توهجه،
لكن هذا العالم ليس بالعالم الذي أنشد.

إسبانيا ١٩٦٤

نُقشت الكلمات الحجرية
على الجدار في المأدبة الأخيرة،
هلّت صحف الطعام مضرجة بالدم.
يجلس فرانكو إلى مائدة إسبانيا،
معتمراً قناعاً مسدلاً، ينهش بلا انتهاء،
مضيفاً النشارة إلى دار عظامه،
وأولئك القابعون في السجن، أولئك الذين ربطوا،
الوردة الأخيرة إلى بنادقهم، وأنشدوا
في السجن يصرخون الآن،
إنها جوقة من سجن الروح وقد قمعت،
هي التي تعيش الحداد، والأغلال تغني،
يصرخ الفؤاد دونما قيثارة،
والألم يضرب ضائعاً في نفق.

أسى

حينما فتحت عينّي على هذه الدنيا،
وتلقيت النور والحراك،
الطعام، الحب، اللغة،
ترى كيف كان يمكن أن أعلم بأنه في كل مكان
ينقض الإنسان اتفاقاته مع النور،

يقيم صرح العقاب، ويكتب له الخلود.
قيدت أميركا، التي إليها أنتمي، أبناءها،
في وحشية، إلى حجر الحزن،
وعذّبت شعوبها، بلا انتهاء.

طغاة أميركا

أنفقت عمري بين أهلي،
وسط المنفيين والموتى.
أيقظت السجّان، سألته عن اسم
أخي الغائب،
في بعض الأحيان ما كان الرد إلاّ صمتاً
يصدر من بئر، يندُّ عن قبر لم يوصد،
يلتزم أب وأم لفهما الذهول للأبد.
احتر ق فؤادي بنار
الشرف الظمأى تلك والبنان المبتور
كما لو كان عليّ أن ألملم
دم خطى الاعتدال المسفوح
وأن أكون دوماً لا ذاتي، وإنما آخرين،
أولئك الذين كنت إياهم أيضاً، دونما، فرح،
لك أنه من أرض يباب خاوية
امتلأ شعري بالمعتقلين.

الأرواح النقية

أدركت أن رجل الشارع.
يُصِرُّ على عزلة من يعكف على الكتابة.
فقد وضعه في برج بالصحراء،
وما به من رغبة في صحبته الجَهْمَة.
وحده يحظى بتقديري في أساه وعمائه.
ينتظر الحصاد الضارب في القتام
من عناقيد الخوف والغضب،
يعشق الخلود الذي يستشعره الرحّالة،
ولا يتعرف يديه،
ولا بؤسه الذي يغمره،
وفي غمار التأمل الذي يعانقه،
يود لو نسي ضروب الافتقار البشري لليقين.

الشعب

في غضون هذا، تعكف الشعوب والقبائل،
على حرث الأرض، والإغفاءة في المناجم،
الصيد في الشتاء الشائك،
صنع أكفانها،
تشييد مدن لن تقطنها،
زرع حنطة لن تغدو خبزها غداً،
والنضال ضد الجوع والخطر.

ليس ضروريا

ليس ضرورياً أن تُصفّر؛
كي تكون وحيداً،
كي تحيا في الظلام،
في قلب الجمع، تحت السماء الرحبة،
نتذكر أنفسنا المنفصلة،
النفس الحميمة، النفس العارية،
النفس الوحيدة التي تعرف كيف تستطيل أظافرها،
التي تعرف كيف صيغ صمتها
وكلماتها البائسة.
ثمة «بيدرو» رسمي،
يتراءى تحت الضوء، وهناك «بيرنايس» توافقه،
ولكن في الأعماق،
تحت وشاح العمر والزي،
لا نزال بلا اسم،
نحن مختلفون تماماً،
ليس للرقاد وحده تغمض العيون،

وإنما لكي تتجنب رؤية السماء المكرورة.
سرعان ما يأخذنا السأم،
وكأنما يقرعون الجرس،ي
لدعوتنا إلى المدرسة،
نعود إلى الزهرة الخبيئة،
إلى العظمة، إلى الجذر، الذي يوشك على الاحتجاب،
وهناك نطل، فجأة،
نحن الذات النقية المنسية،
الوجود الحق،
داخل الجدران الأربعة لجلدنا المفرد،
بين نقطتي الحياة والموت.

انظـروا إلى السـوق

انظروا إلى السوق!
إنه حياتي بكاملها!

انظروا إلى السوق!
يا أصدقائي!

احرصوا على ألا تمسوا بالأذى
الأسماك!
فقد سبق، والبدر في علاه، من خلال
أحابيل الشبكة الخفية، الشص،
يد الصياد المطاردة،
إن لقت حتفها. كانت تؤمن
بالخلود
وها هي ذي
بجلدها وأحشائها، بفضتها ودمها،
على كفة الميزان.

أعيروا الطيور انتباهكم!

لا تمسوا ذلك الريش
الذي تاق إلى التحليق!
الانطلاق،
الذي لا بد إنكم بدوركم في
قرارة قلوبكم تُقْتُم إليه.
الآن قد لفّتها القداسة.
إنها تنتمي
إلى ركام الموت، إلى النقود.
في ذلك السلام الفظ الذي يحاكي الصدأ لوناً،
ستلج حياتك من جديد
حيناً من الدهر، لكن ما من أحد سيأتي،
ليراك ميتاً، رغماً عن كل فضائلك،
أو سيكترث كثيراً بهيكلك.

انظروا إلى لون البرتقال،
إى عبق النعناع الفاغم،
إلى ثمرة البطاطا البائسة في كنفها!
انظروا
إلى الخضرة!
الخَس الذي يطلُ فجأة
الفُلفُل اللاذع، وقد حان أوان الانتقام منه،
استدارة الباذنجان،
الفجل متوهج الحُمرة وبارداً،

الكرفس وقد التفّ بموسيقاه.

حذار من الجبن!
فهول لم يأت هنا لمجرد أن يُباع،
وإنما أقبل ليرينا عطاء مادته،
براءتها الرقيقة،
والتضخم الأمومي
لتضاريسه.

إلزموا الحذر حين تهل ثمار الكستناء!
تلك الأقمار الخشبية الصغيرة، الحاويات
التي أبدعها الخريف،
من أجل الغذاء المزدهر، الثاوي
في خزائن خشب الماهوجني المغلقة تلك.

ترقبوا المُدى في السوق!
فهي ليست من سكاكين حانون الأدوات،
التي تبدو كأسماك غريقة،
ملتفة ومغلفة،
مئات من تماثل قهّار،
ها هنا في السوق تتألق، تغني، وتقضم،
وقد بعثت فيها الحياة مجدداً في رفاه الماء.

ولكن إذا كانت البازلاء
قد صقلتها أم رؤوم،

والطبيعة
صبغتها مثلما الأظافر،
فقد عادت فأخرجتها من قواقعها جميعها، وفتحتها
هوية رحبة.
ذلك أنه إذا كانت الدجاجات
تمضي مرفرفة من يد إلى أخرى،
فليس ذلك راجعاً إلى ضراوة الاحتياج البشري وحده،
إذ يفرض شريعته باجتثاث رقابها،
سيتجمع ثيمر العُليق المترع برغبة الثأر كذلك
في أجمة شائكة،
وفصوص الثوم ستلذع كاوشواك،
باحثة عمن تستطيع تتويجه،
باستشهاد قدسي رهيب،
غير أن البندورة تُمعن في الابتسام،
وفرحة لحمها البهيج
تتكاثف، فتبهر الأنظار،
فيخترقها النور المنصب من الأعالي،
عارياً، وطفولياً، فوق الحانوت،
فيما شحوب التفاح
ينافس نهر الفجر،
الذي ينبثق منه النهار،
مندفعاً

إلى حروبه، إلى أقاصيص حبه، إلى مغازلاته.
لست أنسى الأقماع.
فهي تجلب النسيان إلى المحاربين.
إنها خوذات النبيذ،
المترع دوماً بُحمّيا الحرب، الخشن الملتف بالحُمرة.
فما تدعه أيدي أعدائه وشأنه،
وما ينسى قط خطوته الأولى
هابطاً جبيل
قُمع الخمر.
لا يزال النبيذ يستحضر مادته الإرجوانية.
هابطاً من القُمع،
مثلما تنسكب نار رهيفة من بركان.
ينتشر السوق في شوارع
«ڤالباريزو» الثعبانية،
مثلما جسد أخضر،
يدوم يوماً واحداً، يتألق،
ثم يبتلع الليل،
برق الخضر،
المعروض للبيع،
الملابس الناصعة المشوّشة
للعاملين هناك،
الحوانيت المتطاولة،
من معدن يستعصي على الإدراك،

كلها في يوم واحد،
كل شيء يعرض باندفاع،
ينثر، يباع، تتبادله الأيدي،
يمضي، مثلما الدخان.
بدا الكُرُنْبُ خالداً
وقد أقعى في استدارته المزبدة،
والبالات الشعثاء،
المكتظة بالجزر المشوَّش،
ربما كانت تجسد المطلق.
بعدما مروا،
عجوز، رجل هضيم،
فتاة مجنونة يصحبها كلب،
ميكانيكي من المصفاة،
ميخائيلا مصانع النسيج، جوان راميريز،
أعداد لا حصر لها ممن يدعون رافائيل،
ماريا، بيدرو، ماتيلده،
فرانشيسكو، أرماندو، روزاريو،
رامون، بيلارمنيو،
بأسلحة بحرية، بموجات،
بحدة، باندلاعات
عذابات الجوع في ڤالباريزو،
لم يبق كرنب أو أسماك،
مضى كل شيء، انطلق به الجمع،

مضى كل شيء، من فم إلى فم،
كما لو أن نفقاً هائلاً فاض،
وانزلق في حلق الحياة،
ليستحيل رقاداً وحراكاً،
ها هنا أتوقف، أيها السوق، فإلى اللقاء غداً،
ومعي أصحب هذا الخس.

الذاكـرة

عليّ أن أتذكر كل شيء،
أواصل اقتفاء آثار عوالي النجيل، خيوط
الأحداث المشوَّشة كافة،
الاستراحات بوصة فأخرى،
خطوط السكك الحديدية المترامية بلا انتهاء،
أسطح الألم.

لئن أخطأت موضع زهيرة واحدة،
وخلطت بين الليل وأرنب بري،
ولئن قدر لجدار بكامله،
في ذاكرتي أن يتصدع،
لكان عليّ أن أُعدّل موضع الهواء،
البخار، الأرض، وريقات الشجر،
الشِعر، بل وحتى الأحجار،
الأشواك التي أصابتني،
سرعة الهرب.

رفقاً بالشاعر!
سبّاقاً للنسيان كنت دوماً،
ويداي هاتان
ما كان بوسعهما الإمساك إلا بما يستعصي تلمسه،
بالأشياء التي لا تمس،
التي لا توضع موضع المقارنة،
إلا حينما ينقضي وجودها.
كان الدخان عبقاً،
والعبق شيئاً يحاكي الدخان،
جلد جسد غاف
أعادته إلى الحياة قبلاتي،
ولكن لا تسلني عن موعد
أو اسم ما حلمت به،
وليس بمقدوري قياس الطريق،
الذي ربما كان بلا وطن،
أو تلك الحقيقة التي تبدلت،
أو ربما طردها النهار،
لتصبح نوراً يضرب ضائعاً،
يراعه في الظلام.

يوم طويل اسمه الخميس

ما كدت أستيقظ حتى تعرفت
اليوم. إنه الأمس،
إنه الأمس يحمل اسماً آخر،
صديق حسبته ضائعاً،
عاد؛ ليفاجئني.

قلت له أيها الخميس انتظرني!
سأرتدي ثيابي، وننطلق معاً،
حتى تختفي، في رحاب الليل.
ستلقى حتفك، وأواصل المسير،
متيقظاً ومعتاداً
مباهج الظلام.

لكن الأمور جرت على نحو مباين،
مثلما سأبوح بها في تفصيل حميم.
تمهلتُ واضعاً رغوة الصابون على وجهي.
يا لها من لذة أن أشعر
بالرغوة على خدي!

أحسست بأن البحر يهديني
نصاعة لا تنضب.

كان وجهي جزيرة غامضة منفصلة.
يحفها حَيَدٌ من صابون،
وفي غمار صراع
المويجات وضربات
الفرشاة الدافئة والموسى الحارة،
غاب عني الحرص، وفي التو
عرفت الجرح النافذ،
فضرّجت المناشف
بقطرات من دمي.
دعوت بموقف للنزف، بالقطن، باليود،
بصيدليات كاملة؛ علّها تهرع لمساعدتي.
فما جاوبني إلاّ وجهي في المرآة
مضطرب الغسل، غائر الجرح.

شجعني
حمامي
بدفء يحاكي ما يسبح فيه الجنين على الانغمار تحت الماء،
فتراخى جسدي، في رحاب التكاسل.

ذلك الرحم
أبقاني متراخياً،
في انتظار الميلاد، ساكناً، وسائلاً

مادة رخوة.
وقعت في شرك العدم،
وأجّلت النهوض
ساعات بطولها،
محركاً ساقيّ متلذذاً،
في دفء ما تحت الماء.
انقضى وقت طويل، فيما التففت بالمنشفة، وجففت نفسي،
جورب وراء الآخر،
ساق سراويل فأختها ـ
استغرق إيداع قدم بالحذاء دهراً،
حتى أنني في غمار تشككي الكئيب،
وحينما التقطت ربطة عنق، وهممت بالانطلاق في
جولاتي، باحثاً عن قبعتي،
أدركت أن الأوان قد فات.
كان الليل قد أقبل،
وشرعت في نزع ثيابي،
رداء إثير آخر، لأنزلق بين أغطية الفراش،
حتى لفني النعاس.

حينما انقضى الليل، ومن خلل الباب،
أطل الخميس المقبل، من جديد،
متحولاً على الوجه الصحيح إلى الجمعة،
حييته بضحكة مترعة بالشك،

مفتقداً اليقين، إزاء هويته.
قلت له انتظرني، مبقياً
الأبواب والنوافذ مفتوحة على أقصى اتساعها،
وبدأت مساري المألوف، من الصابون المخفوق إلى القبعة،
لكن جهدي الواهن
واجه الليل المقبل،
حينما كنت أوشك على الانطلاق،
فعدت إلى نزع ثيابي المنهك.

طوال هذا كله كانت في انتظاري بالمكتب،
السجلات الرهيبة، الـ
أرقام المحلقة إلى رحاب الأوراق،
مثلما طيور صغيرة، مهاجرة،
تضامت في حشد ينذر بالوعيد.
بدا لي أن كل شيء قد تجمع
لينتظرني للمرة الأولى -
راح عشقي الجديد الذي أقبل مؤخراً،
يستحثني في ظل شجرة بالمرأب؛
لأترك الربيع ينداح بداخلي.

تجاهلت أمر الطعام،
يوماً إثر آخر، لاضطراري للتحلي
بمكملات أناقتي إحداها إثر الأخرى،
لخوض غمار الاغتسال اليومي وإرتداء الثياب.

كان الموقف عصي الاحتمال.
فقميصي مشكلة في كل مرة أرتديه،
وملابسي الداخلية يتفاقم عداؤها،
وسترتي تطاولت حد السأم.

حتى نالني الردى رويداً، رويداً،
من الجمود، من غياب اليقين، من العدم،
من الوجود بين ذلك اليوم العائد
وذاك الليل المنتظر، كالأرملة

حينما لقيت حتفي، تغيّر كل شيء،
متأنقاً، ولؤلؤة تتألق في ربطة عنقي،
وحليقاً، في إبداع، هذه المرة،
أردت الانطلاق، غير أنه لم يكن ثمة شارع؛
من ثم لم يكن هناك من ينتظرني.

ويندراح الخميس طوال العام.

الأطباق على المائدة

في جلال تتناول الحيوانات طعامها

ذات مرة، راقبت الحيوانات عاكفة على طعامها.
رأيت الفهد، متباهياً
بمخالبه الخاطفة، في سرعته
يطلق العنان
لبهائه الذي يخطف البصر،
وجسده ذو البقع السداسية
يندلع في ومضة من ذهب ودخان،
يسقط على فريسته،
ويلتهمها،
مثلما تلتهم النار
الهشيم، دونما أثر أو ضجيج،
ثم يعود،
نظيفاً، متوفزاً، نقياً،
إلى عالم الماء واوراق الشجر،
إلى متاهة الخضرة طيبة العرف،

رأيت حيوانات السحر عاكفة على العشب ،
رقيقة مثلما النسيم ، فوق البرسيم
ترعى ، على وقع موسيقى
النهر ،
رافعة للنور ،
رؤوسا متوجة .
كلّلها الندى ،
والأرنب يقضم العشب النقي -
خطم رقيق لا يعرف السأم ،
أسود وأبيض ، ذهبي ورملي -
في صف مثلما الأثر المتألق
للنصاعة على العشب الأخضر ،
ورأيت الفيل الهائل
يتشمم ، ويجمع في بوقه
براعم خبيئة ،
فأدركت حينما اهتز خيام
آذانه الجميلة ،
بتلذذ جلي ،
أنه يتوحد مع النبات ،
وأن الحيوان البريء قد لملم
ما كانت الأرض النقية تدخره له .

ليسوا بشرا

ولكن على غير هذا النحو كان سلوك الانسان.
رأيت مطبخه، حيث يتناول طعامه،
حجرة الطعام بسفينته،
مطعمه بالنادي أو الضاحية،
وشاركت في الانفعال
الجامح، الذي يسود كل ساعات عمره.
بشوكته كان يلوح، سكب الخل
على الدسم، لوّن أصابعه،
باللحم الطازج المنتزع من ضلع غزال،
خلط البيض بعصائر مروِّعة،
التهم مخلوقات أعماق البحار نيئة،
وما تزال تنبض بالحياة بين أسنانه،
اصطاد الطيور ذات الريش الأحمر،
مزّق السمك الرعاش،
شك السُفُود في كبد
الأغنام الخانعة،
سحق الأمخاخ والألسن والخِصِّي،
ألقى نفسه في شبكة من ملايين أميال الاسباجيتي،
في الأرانب الجبلية الدامية، في الأمعاء.

في طفولتي ذبح خنزير

لا تزال طفولتي غارقة في الدموع، وأيام
تساؤلاتي الصافية لطّخها
دم خنزير قاتم،
صراخ طويل، حاد، لا يزال يتصاعد
عبر البعد المروِّع.

صيد السمك

وفي سيلان رأيتهم يفرون السمك الأزرق،
سمك العنبر نقي الصُفرة،
سمك يتألق بلون الأقحوان وضّاء الإهاب
رأيت الاسماك تباع، تقطع إلى شرائح، وهي تنبض بالحياة،
وكل شريحة حية ترتعد،
مثلما كنز ملكي في الكف،
ملؤها النبض، ودمها يكسو نصل
سكين قرصان شاحبة،
كما لو كانت لا تزال تود، في غمار عذابها،
أن تسكب ناراً سائلة، ويواقيت.

الطيبة الخفية

ما أطيب الجميع!
ما أرقهم «جوان»، «سيلفريو».
و «بيدرو»! ما أطيب «روزا»!
كم هو وديع «نيكولاس»، و «جورج»!
ما أطيب «دون لويز» و «دونا لويزا»!
بمقدوري استحضار ذكرى العديد من الأناس الطيبين!
نعم، فالأمر يشبه مخزن الحنطة،
أو ربما لم أصادف إلا أطايب القمح.
غير أنه من المستحيل أن أضرب في الدنيا،
مثلما فعلتُ، دونما عثور على استثناء،
من كهول أو فتية، نساء أو فتيات.
على هذا النحو كانوا جميعاً، صلابة في المظهر،
أو هشاشة به،
لكنني كان بوسعي أن أستشف أغوارهم،
تفتحوا أمامي، مثلما ثمار البطيخ،
فتكشّفوا عن طيِّب العطاء ونقي الفاكهة،
اللهم إلا أنهم كانوا، في مرات عديدة،
بلا نوافذ ولا أبواب.

إذن فكيف رأيتهم؟
جربتهم وعرفتهم؟
الحق أنه في الشر يكمن السر.
في داخل النفق لا وجود للربيع،
وفي البئر تتهاوى الفئران،
وبعدها لا يعود الماء إلى ما كان عليه.
ربما حادثت «أماديو»
إثر اقترافه الجرم، لست أذكر،
حينما لم تعد حياته
تعادل قُلامة أُظفر،
ووجدت أن جرمه لم يُغيِّر في ناظريّ
الطيبة التي راكمها وما أهدرها.
لقد جعله شرهه للطيبة شريراً.

وما ان تبدل موقفه،
حتى تكشف الشر القابع في أعماقه للجميع،
حيثما قدم الشيء الوحيد الذي كان بمقدوره أن يعطيه لمرة فحسب،
وظل
على ما كان عليه، لا شريراً وإنما ملعوناً.
حينما انعتق الرجل البائس من ربقة جهله،
كان أوان الإدراك قد فات،
وانقلب جلاء بصيرته تعاسة.
ترصدتني الكراهية عبر جُلّ حياتي،

في شخص عدو متربص .
السيرك . الشاعر المفاجىء .
شريراً ما كان ، وإنما عانى
من عجزه عن الكتابة الحرة .
ما استطاع الاحتراق ، مثلما تعرف النار كيف تندلع ،
أو التزام الصمت ، مثلما تعكف المعادن عليه .
كل ما كان مستحيلاً
بالنسبة له ، هو الذي ملأ الدنيا تباهياً وتفاخراً ،
استحال نقوداً .
وجموعاً وطبولاً على بابه ،
ولما كان رجل الشارع لا يدري ،
كم هو عظيم فقد ظل وحده ،
يكيل الاهانات للمواطن الشريف ،
الذي واصل المضي إلى مكتبه .

هناك الكثير في هذا العالم يتعين تغييره ،
لنبرهن على اننا جميعاً طيبون ،
دون أن تستنفدنا المحاولة ليس بمقدورنا
أن نقلب طيبتنا سلاحا .
ولئن فعلنا فمهجورة ستغدو
المدائن التي فيها
تخفي كل نافذة في حرص
أعينا تنشدنا ، أعينا لا نراها .

ما نقبله راغمين

آه، أي حنين يراودنا إلى لا،
لا، لا، لا!
كم من العمر
أنفقنا
أو خسرنا
عاكفين على نعم، نعم،
نعم، نعم،
نعم، نعم!
كنا في قرار الوحل، آنذاك،
وحينما هوينا من علياء النجم،
مغرقين، وسط الجاموس،
على النهر،
بقرون متشابكة،
حينما عجزنا عن الحراك،
دنوًا أو نأياً، لحظة
غياب الحسم، التي تنحت
ببطء تسرب الحمض،

أخيراً، وبكل المعاني
فقدنا إرادتنا
بقينا هناك أحياء وإن كنا أمواتاً
ذلك أنه لإنقاذ
«بيدرو» وجدته من العناء ـ
بهذا المعيار
كنا نُقاس
طوال عمرنا
من قمة رؤوسنا حتى أخمص أقدامنا،
وبمثل هذا الاستخفاف
كانوا يحكمون علينا،
ثم بازدراء
أبلغونا بأي الاحشاء
علينا
أن نضحي،
أي العظام،
الأسنان، والعروق
سيزيلونها في شره
من هياكلنا المتعبة
هكذا انقضى ذاك الخميس،
الذي أرتمينا فيه وسط الحِجار
بلا أقدام ثم
بلا لسان.

كنا قد استنفدناها، دون أن ندري،
قلنا نعم دون أن نعرف كيف
وبين جَمْجَمَات نعم وأُخريات
تُركنا مسلوبي الحياة وسط الأحياء،
نظروا جميعا إلينا، فحسبونا أمواتاً.
لم ندرِ
ما يمكن أن يحدث، لأن الآخرين
بدوا وكأنهم يوافقون على أن يكونوا أحياء
وهنالك كنا،
متجردين حتى من القدرة
على أن نقول لا، لا
أو ربما لا، أو أبداً
لا، أو دوماً
لا، لا،
لا، لا،
لا، لا

التواصل

الموت للأشياء الخبيئة كلها! بهذا قضيت.

حتّام نخدع أنفسنا، بوجوه موصدة،
بأعين لا ترى، توشك أن تغفو،
وحدة الوجود، جهور الأمور، بالنسبة لنا، والوجود نور، أن نُر
وأن نَرى، نَمس، نَكتشف.

ليسقط كل ما لا يزدهر!

لا طائل من وراء الجذور، حينما تكون وحيدة!

لسنا بالمضطرين أن نحيا متقلدين
حجر الأعماق،
أو زجاج
الليل
الغارق.
علينا أن نكبر ونرفع الرايات،
نوقد ناراً على الجزيرة.
لعل الضارب في الأرض غافياً
يستيقظ،

يستجيب،
لمهرجان النار المفاجيء،
الذي اندلع هناك، على ساحل استكان للظلمة حتى الآن
من تراثنا المضيء يشب!
من التواصل الحق،
حتى ما يعود ثمة مزيد من الظلام، ونحن
مع الآخرين والأخريات.
في سمت النور نعشق.
في زخم العشق يروننا، فنسعد.
بلا صمت هي الحياة الحقة.
والموت وحده يظل أخرس، لا يحير نطقاً.

الحقيقة

لكما معاً كرّست نفسي، أيتها المثالية والواقعية.
أنتما
كالماء والحجر،
أجزاء من الدنيا،
نور الحياة وجذر شجرتها،

لا تغمضوا عيني، حتى
بعد مماتي!
فسأظل بحاجة إليها؛ لأتعلم
النظر وإدراك موتي.

إني بحاجة إلى فمي،
لأغني، فيما بعد، حينما يتبدد وجودي،
وأحتاج روحي ويدي وجسدي،
لأواصل عشقك يا حبيبتي!

أعرف أن هذا مستحيل، لكني أردته.

لست عاشقاً إلا للأشياء التي تراودها الأحلام.
أمتلك حديقة زهور لا وجود لها.

إنني، عن عمد، مثلث الشكل.

لا زلت افتقد أذنّي،
لكني لملمتهما، لأرحل،
في مرفأ نهري بدواخل
جمهورية «مالاجيتا».
لا أستطيع المضي حاملاً وقر العقل.

أريد أن أبتدع اليوم بحرنا اليومي.

أقبل مصور عظيم مرة لمقابلتي.
صوّر جنوداً.
كانوا جميعاً أبطالاً، ورسمهم
الرجل الطيب، في حومة الوغى،
يلقون حتفهم، في مرح بالغ.

صوّر كذلك أبقاراً من الواقع،
كانت من دقة الشبه بالأبقار
حتى أني طفقت أغرق من الاكتئاب.
متأهباً للتأمل إلى الأبد.

ياللعنة والروع! قرأتُ روايات
كريمة بلا انتهاء،
والعديد من القصائد، حول
الأول من مايو
حتى أني الآن لا أكتب إلا عن الثاني منه.

يبدو لي أن الانسان
يمضي خشن الخطو، عبر معالم الطبيعة،
الآن ها هي ذي الدروب التي أظلتها سماء يوماً
تبتلينا
بإصرارها الجشع.

ذلك هو ما يحدث عادة لكل ما هو جميل.
يغلفونه بذوقهم وأسلوبهم.
كأننا لا نرغب في ابتياعه.

علينا أن ندع ربة الجمال تراقص
أقل عشاقها حظوة،
بين النهار والليل.
دعنا لا نشعر بأننا مضطرون لابتلاع
قرص الحياة، كما لو كانت دواء.

وماذا عن الحق؟ الأمر عينه، دونما شك،
ولكن دعه يريدنا
يمددنا، يبردنا،
يجلو أبصارنا،
من خلال حقيقة الخبز، مثلما عبر الروح.

دعنا نهمس! أمرت
الغابة الصافية
بأن تلتزم الكتمان مع أسرارها،

وللحقيقة أقول: لا تمكثي طويلاً، طويلاً،
حتى يلفك التصلب، فتسستحيلي كذبة!
لست بالمدير، وما خُوّلت شيئاً من سلطان؛
لهذا السبب أُقدّر،
الأخطاء، في غمار أغنيتي.

المستقبل مدى مفتوح

المستقبل مدى مفتوح،
مدىً في لون الأرض،
في لون السحاب،
في لون الماء، الهواء،
مدىً قائم يسع أحلاماً عديدة،
مدى ناصع يسع الثلج كله،
الموسيقى كلها.

وراءه يمتد عشق يائس،
لا مكان فيه لقبلة.
ثمة مكان للجميع في الغابات،
في الشوارع، في البيوت،
ثمة مدى تحت الأرض، مدى تحت البحر.
ولكن أي فرحة أن نجد في النهاية،
طالعاً
كوكباً خاوياً
نجوماً هائلة، في صفاء الفودكا
خاوية، وشفافة،

ونصل هناك مع أول هاتف؛
ليستطيع أناس كثر مناقشة
ضروب افتقارهم للحزم كافة.
الشيء المهم أن تنداح ذواتنا، فيما حولنا،
أن يصرخ المرء، من مدى جبلي خشن،
فيرى على قمة أخرى.
قدّمي امرأة، وصلت لتوها.

هيا بنا، فلنغادر
هذا النهر الخانق،
الذي نسبح فيه مع الأسماك الأخرى،
من الفجر حتى الليل القُلَّب!
الآن في هذا المدى المكتشف.
فلنحلق إلى وحدة نقية!



كتب نيرودا «كراسة إيسلا نجيرا»، خلال الفترة من ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣، وهو في الرابعة والخمسين من عمره هدية لنفسه، مع إقبال عيد ميلاده الستين، لتكون سيرة ذاتية لحياته، في صورة فيض من القصائد. فكانت رحلته الثالثة في عالم السيرة الذاتية؛ إذ كان مسلسل القصائد المؤلف من ثلاث وعشرين قصيدة بعنوان «أكون» قد تضمن عرضاً لحياته حتى عام ١٩٤٩ وقد صدر هذا العمل في عام ١٩٥٠، وفي عام ١٩٦٢ نشرت مجلة «كروزيرو إنترناسيونالي» البرازيلية الشهرية «حيوات الشاعر»، وهي سلسلة من مقالات السيرة الذاتية المتتابعة، غدت فيما بعد أساس مذكرات نيرودا، التي صدرت عام ١٩٧٤ عقب وفاته.

ولي مما يثير الدهشة أن يعكف نيرودا على كتابة السيرة بين الحين والآخر؛ فقد كان شخصية عامة، منذ مطالع العشرينات من عمره، حين جلب له ديوانه «خمسون قصيدة حب»، الصادر عام ١٩٢٤ شهرة مبكرة. وحفلت حياته، بصفته قنصلاً لتشيلي، في العديد من أرجاء الشرق الأقصى، ثم في أسبانيا، مع اندلاع نيران الحرب الأهلية هناك، بالأحداث المثيرة. كان، وهو المغالي في عدائه لعزلة المثقفين، والغارق في النشاط السياسي الكفاحي، تجسيداً للشاعر الأمريكي اللاتيني، وحظيت قصائده بقدر هائل من الانتشار، وحفظها الكثيرون عن ظهر قلب.

وحبنما تلقى جائزة نوبل للأدب عام ١٩٧١، وصفته الأكاديمية

السويدية بأنه: «شاعر كرامة الإنسان المهدرة»، الذي «بعث الحياة فِ
قدر قارة وأحلامها».

وفي مذكراته المكتوبة نثراً، بل وفي ديوانه «أكون»، أبدى نيرو اهتماماً أكبر بذاته التاريخية، بالدور الذي قام به في دراما التاري والتحول الاجتماعي. أما في «إيسلا نيجرا» فإنه أقل إيغالاً في التاري بالمقارنة برحيله وراء ذواته السابقة، ويغدو الشاعر دائب التجوال، جا الماضي إلى رحاب الحاضر؛ لإعادة النظر فيه، عاكفاً على تدوين كرا جوّاب آفاق حول نفسه. ولسوف تكون «ملاحظات من ايسلا نيجر عنواناً أكثر أمانة واتساقاً مع العنوان الأصلي، الذي لا علاقة لكل «كراسة» الإسبانية فيه بالكلمة ذاتها في الإنجليزية، والتي تعني في هـ اللغة الأخيرة «النصب التذكاري». وبدلاً من إقامة مثل هذا النصب وهو قصد يغرق في التباهي، كتب نيرودا مذكرات تراوح بين الحاخ والماضي، ويستحضر هذا الأخير إلى رحاب الحاضر الشعري (ليس «إيسلا نيجرا» ـ عكس ما يوحي اسمها ـ جزيرة، كما أنها ليست سودا وإنما هي قرية صغيرة، تقع على بقعة رملية، على ساحل تشيلي المـ على المحيط الهادي، على بعد ثمانين ميلاً إلى الجنوب مـ «ڤالباريزو»)، حيث اشترى نيرودا دار قبطان عجوز في عام ١٩٣٩، كـ يعتكف فيها، يعكف على النظم، كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وحيـ صدر هذا العمل، وصف نيرودا القصد منه بأنه «غزل خيط سيرة حياة وفي الوقت نفسه الإمساك بـ«الشعور الفَرِح أو الكابي لكل يوم... قـ تتناثر ثم تلتم، تطاردها وقائع الماضي والطبيعة، ما تنفك تهتف بأصواتها العديدة».

وعلى عكس المذكرات النثرية، فإن «الملاحظات» لم يقصد بها أن تكون سيرة ذاتية متضمنة للحقائق بقدر ما أريد لها أن تكون كراسة غير رسمية، يختلط فيها سرد وقائع الماضي مع سجل تجربة الحاضر، فالمذكرات النثرية هي استعادة لأحداث الماضي، أما «الملاحظات» فتنبع من الاستبطان، وتلفت الطبعة الإسبانية الأصلية الانتباه إلى مفهوم الكراسة هذا، بنشر الدواوين الخمسة التي تؤلف في مجموعها «إيسلا نيجرا» في مجلدات رشيقة منفصلة.

ولسوف يلاحظ القارىء، في غمار إيغاله عبر الدواوين الخمسة لـ«ايسلا نيجرا»، التراجع التدريجي لخيط سيرة الحياة والتواتر المتصاعد لقصائد «المذكرات»، تلك الغنائيات التي تعزف نغمات الحاضر، عبر تذكارات الماضي، طارحة حديث سيرة الحياة، وبغلبة التأملات الحالية للشاعر دائب التحول. ويبدو الانتقال جلياً لأول مرة في «هاتيك الحيوات» أي القصيدة التاسعة عشرة في «القمر في المتاهة»، حيث يتحرر النص من مسار السياق الخاص بسيرة الحياة:

من هذ جُبلت، هكذا سأقول، لأترك
عذراً مكتوباً. هذه حياتي،
الآن، غدا جلياً أن ذلك عصيّ الاجتراح -
أن الخيوط ليست وحدها ما يهم في هذه الشبكة،
وإنما كذلك الهواء الذي يهرب عبر العيون.

وحينما نصل إلى «الذاكرة»، بعد خمس وخمسين قصيدة، فإن الإقرار الأول يستحيل مناشدة «رفقا بالشاعر!» وأن نغتفر له تقلبات ذاكرته حيث:

سبّاقاً للنسيان كنت دوماً،
ويداي هاتان
ما كان بوسعهما الإمساك إلاّ بما يستعصي تلمسه،
بالأشياء التي لا تمس،
التي لا يمكن أن توضع موضع المقارنة،
إلاّ حينما ينقضي وجودها.

ثمة نداءٌ محيِّر يحدث تأثيره في «إيسلا نيجرا»، ذاكرة شعرية لا يمكنها تبين معنى التجربة إلاّ بـ«نسيانها»، ويلمح نيرودا إلى ذلك في المقدمة التي كتبها لـ«حيث يولد المطر»، أي الديوان الأول، لدى نشره منفصلاً في طبعة سابقة في إيطاليا، فهنالك يدعوه بـ: «الخطوة الأولى رجوعاً إلى أرضي»، ثم يقر بفقدان الاتجاه الذي «يهديه»: «لقد نُسي الدرب، فلم نترك آثار نستدل بها لنعود أدراجنا، ولئن كانت أوراق الأشجار قد ارتجفت، حينما مررنا بها، ذات مرة، فإنها الآن ما عادت ترتجف، وعصا البرق، التي انقضّت لتلحق الدمار بنا، ما عاد يصدر عنها حتى الصفير، والسير نحو الذكريات في الدخان، وطفولتي إذ أحدّق فيها من عام ١٩٦٢ وفي «ڤالباريزو» بعد أن سرت هذه المسافة كلها لا تتبدى إلا مطراً ودخاناً. ونيرودا، إذ يصف الذاكرة بأنها مهتزة، ولا مجال للاعتماد عليها، إنما يضفي على الماضي طابعاً فريداً، يحفظه تماسكه غير القابل للتكرار، ويجعل من الإيماءة الخاصة بسيرة الحياة حدثاً قوامه التفسير، يقر بوجود «المسافة» التي تفصل ماضي التجربة المعاشة عن حاضر الكتابة. ولم يقدر لهذه المقدمة قط أن تدرج في أي من الطبعات اللاحقة من «إيسلا نيجرا» الكاملة؛ ربما لأن نيرودا فضّل أن

يترك وجهة النظر الجوهرية تلك مدرجة ضمناً في القصائد.

ويعد الديوان الأول الموسوم «حيث يولد المطر» الديوان الأكثر وضوحاً في طابعه السردي لسيرة الحياة؛ فهو يغطي الأعوام من ١٩٠٤ ـ ١٩٢١، أي منذ ولادة نيرودا في «بارال»، وهي قرية في وسط تشيلي، حتى وصوله إلى «سانتياجو» كطالب لدراسة اللغة الفرنسية في معهد المعلمين. وتتبع القصائد السياق الزمني لتطور حياة نيرودا، وتمنح العناونين غير الشخصية إطاراً موضوعياً لكل منها، فتبدو بمثابة صور في مغلف عائلي. ويشير عنوان الديوان إلى جنوب تشيلي الرطب (يقول نيرودا في مذكراته النثرية: «كان المطر بالنسبة لي، في ذل الوقت، هو الحضور الوحيد الذي لا ينسى»). والقصيدة الأولى الموسومة «الميلاد» هي تأمل في موت أمه، التي لم يعرفها ـ فقد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد شهر واحد من ميلاده جرّاء السل ـ موت أقرب إلى التضحية، يغذي كروم بارال ونمو نيرودا، تتبعها قصائد تدور حول زوجة أبيه المحبوبة تربيداد كانديا مارفيردي وأبيه الفظ جوزيه ديل كارمن رييز موراليس الميكانيكي في قطار عتيق، وكانا الشخصيتين البارزتين في تلك الأعوام الأولى من حياته. وتسود نواة صباه في «تيمكو» القصائد التي تلي ذلك نوادر اكتشاف الصبي لساندوخان وساندوخانا، بطلي قصة القراصنة الشهيرة لاميليو سالجاري، نوادر دار وبنات أو ميرو باتشيكو، والأصدقاء المقربين من عائلة رييز، نوادر أقاصيص عمه جينارو الطويلة، المفعمة بالدفء. وعلى نحو ما يفعل وورد زورث في الدواوين الأولى من «المدخل»، فإن نيرودا يحفر كاشفاً عن «موسم بذاره البديع»، الذي نما فيه «يضمه في آن واحد الجمال والخوف معاً». وإلى جوار الرؤية الأولى

«للشيطان المخادع المظلم» في «أساطير» فإنه يستحضر مدن الجنوب الصغيرة في تشيلي: «كاراهور»، «كوتان»، «رينكو»، «فيلا نليبون»، التي تردد أسماؤها صدى منشأها الراجع لهنود «أروكانيا». وينتهي السباق باستقرار نيرودا في دار مؤجرة للطلاب في كالي ماروري بسنتياجو، حيث قدر له أن ينظم العديد من قصائد ديوانه الأول الصادر في عام ١٩٢١، والذي كان بطريقته الخاصة وداعاً مؤلماً للطفولة.

يغطي الديوان الثاني الموسوم «القمر في المتاهة» الأعوام من ١٩٢١ إلى ١٩٢٩ من كتاباته الأولى إلى توليه للمنصب الثاني من مناصبه القنصلية الثلاثة في الشرق الأقصى، وتملأ القصائد العشر الأولى فراغ سنوات سنتياجو القلقة المتأرجحة. وتستحضر القصيدة الموسومة «١٩٢١» حفل توزيع الجوائز، الذي تلقى فيه نيرودا جائزة اتحاد الطلاب عن قصيدة «أغنية المهرجان»، ويشير إلى «القصائد العشرين ذات النكهة المحلية» التي الهمته إياها في ذلك الوقت امرأتان مختلفتان، هما تريزا وروزورا الشخصيتان اللتان تتصدران موكباً من قصائد العشق التي تتخلل «إيسلا نجيرا»، ولم يكشف نيرودا قط النقاب عن حقيقة شخصيتي هاتين المرأتين، لاجئاً بدلاً من ذلك إلى أسماء مستعارة، على سبيل المداعبة، وكانت تريزا (أو ماريسول على نحو ما تدعى في المذكرات النثرية) هي الملهمة الريفية لنصف هذه القصائد العشرين، وتفيض القصائد المهداة لها بزخم الصور الطبيعية، وكانت روزورا هي المقابل المديني لها (ويرد اسمها ماريسومبرا في المذكرات النثرية) ويقول نيرودا في المذكرات إنها: «السلام الجثماني للقاءات العاطفية في مخابىء المدينة» (مؤخراً ذُكر أن روزورا هي البرتيناروزا ازوكار سوتو، التي كان زميلة لنيرودا في

معهد المعلمين، وشقيقة روبين ازوكار أحد أصدقاء نيرودا المقربين) وفيما بين القصائد التي الهمتها هاتان الملهمتان الجليلتان تتناثر قصائد خصصت للحديث عن «الأصدقاء المجانين» في سنتياجو البوهيمية «جواكين سفينونتس سيبولفيدا» و«البرتو روخاس» «جيمنيز» الرفيقين الشاعرين، اللذين ألهم انتحار كل منهما على حدة نيرودا، فيما بعد، اثنتين من أكثر مرثياته تأثيراً في النفس. وكان «أوميرو أرسي» شاعراً معروفاً، غدا سكرتيراً لنيرودا لبعض الوقت، ولا تزال الشخصية الحقيقية لراؤول «وجه الفأر» في رحاب الغموض، ولم يرد له ذكر في أي من المذكرات النثرية.

وتتناول القصائد التسع التالية السياق الزمني لرحيل نيرودا إلى رانجون، مروراً بلشبونه ومدريد وباريس ومرسيليا وجولاته القنصلية في الشرق الأقصى. كانت السنوات الخمس التي قضاها نيرودا في آسيا مليئة بالمشاق، حيث انتقل من مناخ وبقعة أرضية مألوفين، وفي هذه الفترة نظم سلسلة من الغنائيات المعتمة روحياً. وتبدو قصائد نيرودا التي كتبها عن الشرق في تميز حاد عن قصيدة «باريس ١٩٢٧» المفعمة بالحنين إلى الوطن، وقد أثقلته أعوام نفيه بعيداً عن أمريكا اللاتينية، حافلة بشعور قوامه استفظاع الحياة في مراكز الاستيطان الاستعماري، التي عمل بها، وقد أصبح «النهر المتدفق» في قصيدة «باريس ١٩٢٧» النهر المنطلق. . . نحو المدينة الخانقة «في رانجون ١٩٢٧» ونظر إلى سيلان في ضوء أكثر إيثاراً، وذلك على الرغم من أنه يعترف بأنه قد عاش هناك «بين اليأس والإشراق»، غير أن خيط سيرة الحياة ينقطع بعد «هاتيك الحيوات»، ولا يرد ذكر لسنوات نيرودا الباقية في جاوة وسنغافورة

وزواجه الأول عن غير حب من «ماريا انطوانيتا هاجينار» وهي من مواطنات جاوه من أصل هولندي أو لعودتهما إلى تشيلي في ١٩٣٣، وبدلاً من ذلك، ينتهي هذا الجزء بأربع قصائد، منفصلة، لا رابط بينهما، تختتم بالقول بأنه «ما من نور ساطع، ما من ظل جلي في التذكار».

يعود الديوان الثالث الموسوم «النار الضارية» راعداً إلى الواقعية التاريخية، كأنما فرضت القصائد ذاتها على الشاعر، والنيران الضارية هي تجربة نيرودا المأساوية، المتفجرة بالانفعال، في الحرب الأهلية الإسبانية. كان يعمل قنصلاً لبلاده في برشلونة أولاً ثم في مدريد، في الفترة من ١٩٣٤ حتى أواخر ١٩٣٦، وربطته صداقة وثيقة بجمع من الشعراء الأسبان، تتناثر أسماؤهم على امتداد هذه القصائد: «فديركو جارسيا لوركا»، «ميجيل هرنانديز»، «رافاييل ألبرتي»، «فايسنت الكسندر». «كان» «ونيشيلاد روسيز» صديقاً برز وسط اللاجئين الذين رتب نيرودا لدى عودته كقنصل لشؤون الهجرة في ١٩٣٩ سفراً آمناً لهم على متن «وينيج» سفينة الركاب المؤقتة، غير أن الترتيب الزمني للأحداث في هذا الديوان يشوبه الاضطراب، فنيرودا ينتقل من القصائد التي تدور حول إسبانيا إلى قصيدة «في المناجم السامقة»، وهي قصيدة تدور حول مناطق التعدين التشيلية في «انثوفاجا ستا وتاراباكا» (التي أنتخبت نيرودا نائباً عن الحزب الشيوعي في مجلس الشيوخ في ١٩٤٥) ربما ليظهر أن انغماسه وتجربته في إسبانيا هما اللذان مضيا به إلى إعلان التزامه السياسي في تشيلي. وقد أدى تحول نيرودا إلى الالتزام إلى قيامه بإعادة تقويم الوظيفة الحقة للشاعر، يقول: «بدأت أتطلع وأرى، على

نحو أعمق، في الأغوار المضطربة، للعلاقات بين البشر». وهذا الشاعر الجديد الملتزم سياسياً التزم كذلك «بالنزعة الأمريكية» أي الاهتمام بهوية أمريكية لاتينية حقيقية وأصلية، وهو ما يتجلى في القصائد الصادرة في ١٩٥٠، والتي أتم نيرودا نظمها في المنفى السياسي، فيما كان مختفياً عن أعين الشرطة التشيلية.

في منتصف «النار الضارية» تظهر ثلاث قصائد، في انتقال مفاجىء للماضي هي «أذكر الشرق» و«جوزيا بليس» الأولى والثانية. ومن ناحية السياق التاريخي تنتمي هذه القصائد إلى الديوان الثاني، لكنها ترد هنا فجأة كصدمات الذاكرة. كانت جوزيا بليس هي خليلة نيرودا في بورما، «سيدته السمراء». وكانت عاشقة شديدة الغيرة، دفعت تهديداتها العنيفة بنيرودا إلى سيلان، حيث تبعته إليها مناشدة إياه مصالحة، لم يقدر لها قط أن تتم. وقد عاوده رفضه لها، غالباً، وعلى نحو مؤلم، وهي تعاود الظهور من جديد في القصائد التالية، إنها تظهر هنا شبحاً مفارقاً للواقع التاريخي، رمزاً لمعاناة وندم نيرودا، أما القصائد الباقية في «النار الضارية» فهي قصائد مذكرات، وتشير القصيدة الأخيرة الموسومة «المنفى» إلى الفترة حوالي عام ١٩٥١، التي أمضاها نيرودا منفياً في أوروبا، حيث تعلق في «كابري» بماتيلدا أوريتا التي أصبحت زوجته الثالثة في ١٩٥٥، غير أن المنفى يبدو، خاوياً، والشاعر «شبحاً يلفه الجرح» و«روحاً انتزعت من جذورها».

وتهب موضوعة المنفى الديوان الرابع عنوانه «صياد الجذور»، الذي ينوّع على موضوعة المنفى، بحسبانه اقتلاعاً للجذور، ويعرض عودة نيرودا النهائية إلى تشيلي في ١٩٥٢، باعتبارها رحلة للعثور على الجذور

وإعادة امتلاك ناصية هويته (استمد العنوان من تمثال خشبي نحته من جذر واحد طويل المثال الإسباني «البرتو سانشيز»، الذي أهدى نيرودا الديوان له، وتظهر صورة للتمثال على غلاف الطبعة الأصلية) وليس هناك إلا قدراً محدوداً من سرد السيرة الذاتية في القصائد الثماني عشر، اللهم إلا في القصيدتين المهداتين إلى «داليا ديل كاريل» زوجة نيرودا الثانية، التي طلقها في عام ١٩٥٤، وقد دام زواجه بداليا ثمانية عشر عاماً، كانت حافلة بالأحداث السياسية، التي شارك فيها الزوجان بصورة نشطة، الأمر الذي يعلل المنظور التاريخي الممتد إلى جانب المنظور الشخصي في قصائد «داليا» وتستحضر «معزوفة مكسيكية»، التي نظمها الشاعر في الوقت الذي أمضاه نيرودا هناك منفياً في عام ١٩٤٩. أما القصائد الباقية فتظل محتفظة بالمناخ النفسي لقصائد نيرودا الصادرة في عام ١٩٥٨، وهي تأملات متعددة الجوانب، أما الديوان الأخير الموسوم «سوناتا نقدية» فهو أقل الدواوين، من حيث طابع السيرة الذاتية، حيث أنه لا يعدو أن يكون قصيدة سياسية طويلة هي «الابييزود» التي ينتقد فيها نيرودا النزعة الستالينية بقسوة، وفي الوقت نفسه ينغمس في الدفاع عن الذات. وعلى امتداد مقاطع القصيدة التسعة والعشرين، يتبع نيرودا، على وجه التقريب، إدانة خروشوف لعبادة الشخص في عهد ستالين، لكنه ينظر إلى ستالين باعتباره تشويهاً مؤقتاً لا يمكن أن يحجب رؤيته للشيوعية ككل، يقول: «ولحظة في الظلام لا تسلبنا النظر»، وقد كان نيرودا ستالينياً مطيعاً، والعديد من قصائده أعدت لتهدئة ثائرة خصومه ومنتقديه. كان قد كتب في عام ١٩٥٤: «ستالين هو سمت الضحى، نضج الإنسان والشعب»، أما الآن فهو يقول: «يحجب وليد الإرهاب، الخسوف، القمر، الشمس الملعونة، لذريته المضرجة بالدم».

وفي «سوناتا نقدية» يتم إبراز اثنين من نقاد نيرودا للتعامل معهم بصفة خاصة، وهما: «ريكاردوباسيرو» الذي يرد اسمه «بيبيا سيرود» في «الابيبيزود» وهو من أبناء أوروجواي، وقد سار جنباً إلى جنب مع نيرودا في رحلاته على امتدا العالم، «وبابلودي روخا» (السيد ك. ، الشاعر المفأفىء) وهو من أبناء تشيلي، ومن معاصري نيرودا، وقد دفعه حسده إلى كتابة مؤلف حافل بالتذمر بعنوان «نيرودا وأنا» (وقد انتحر «دي روخا» في وقت لاحق).

في الطبعة الأصلية من «إيسلا نيجرا»، الصادرة في عام ١٩٦٤، كان النص الأخير قصيدة مهداة إلى «ماتيلدا أوريتا» (بعنوان «أقاصيص حب: ماتيلدا») كانت بالمقارنة بقصائد الحب الأخرى تأملاً واحداً طويلاً حول الحب، اندماجاً روحانياً أكثر منها استحضارات منفصلة للذكرى. وقد حذف نيرودا هذه القصيدة من «إيسلا نجيرا» في الطبعة الثالثة من أعماله الكاملة، وجعلها القصيدة الإفتتاحية لمنظومة قصائده الصادرة في ١٩٦٧، وهي قصائد حب نظمها في زوجته، وبذلك فإن مقطع «المستقبل مدى مفتوح» يغدو القصيدة الأخيرة في «إيسلا نيجرا» وهي نهاية جديدة تفتح بأكثر مما تختتم، وتتضمن تصوراً لعالم من الاحتمالات «أي فرصة أن نجد في النهاية طالعاً، كوكباً خاوياً».

في ٢٣ سبتمبر ١٩٧٣، توفي نيرودا في إحدى مستشفيات «سنتياجو»، إثر مرض فاقم من حدته حزن الشاعر إزاء الانقلاب العسكري الذي أطاح بحكومة سلفادور اليندي، الذي ساعد نيرودا في وصوله إلى السلطة. غير أن السيرة الذاتية للشاعر، شأن الذاكرة التي تسردها، تظل سفراً مفتوحاً، مبدعاً ونابضاً بالحياة. يقول نيرودا:

«وليس بمقدوري قياس الطريق، الذي ربما كان بلا وطن، أو تلك الحقيقة التي تبدلت».

قد لا يكون الإنسان جزيرة، لكن ذاكرته هي جزيرة قائمة بذاتها.

انريكو ماريوسانتي
جامعة كورنيل

فهرست

لحظة في الظلام
لا تسلبنا النظر